حقوق الطبع والنقل محفوظة للمطبعة



سنة 1995



المطبعة العلاوية بمستغانم



في تهذيب الروح وتربية الضمير



للأستاذ الشيخ:

عدّة بن تونس المستغانمي



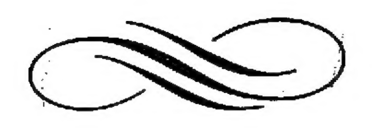
جمعه وأعدّه رشيد محمد الهادي بن تونس

وقدّم له وصحّحه الأستاذ يحيى الطاهر برقة

الطبعة الثانية

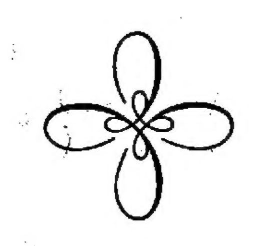
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ
أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ. ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ
مَـَٔابٍ.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ
يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ. رِجَالٞ
لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ
ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ
فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ. لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ
أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ
يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ.



مقدمة الكتاب



وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد نبي الرحمة وسراج الأمة وعلى آله وعترته وصحابته وتابعيه وسلم تسليما كثيرا

«أما بعد» أخي القاريء الكريم ! إليك أقدم هذه الجوهرة الثمينة من تراثنا الثقافي الحديث، الزاخر بأنواع المعارف التي ما يزال الكثير منها ينتظر من يكشف عنها اللثام، ويخرجها للناس لعلهم يفقهون ما لأجدادهم من جلائل الأعمال، وما لآبائهم من جميل الآثار التي تدل على مكانتهم في ميدان البحث والفكر والنظر، وهدفهم في كل ذلك إحياء الإنسان الجزائري المسلم، وتنوير عقله وضميره بأنواع العلوم الإسلامية المستمدة من مائدة القرآن، وصحيح السنة.

وقد رفعت مجلة (المرشد الكريمة هذه الراية مناضلة بالكلمة الطيبة، والدعوة الخالصة من شوائب النقص والتضليل داعية الأمة الجزائرية خاصة، والإسلامية عامة، إلى التمسك بأصول الدين الإسلامي، وبتعاليمه القيمة؛ كما آلت على نفسها أن تنتصر لمذهب التصوف الذي يمثل الركن الثالث في الدين، وهو « الإحسان » المشار إليه في الآثار الصحيحة. وكانت (المرشد) تواجه مختلف التحديات المعاصرة. مستميتة في دعوتها إلى الدين الصحيح، ومحاربة البدع والمنكرات، الضالة، وهدفها: إحياء القلوب، وتنوير البصائر، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة تحت توجيه وإشراف مؤسسها الأستاذ الجليل، والمربي الشهير (الشيخ عدة بن تونس) رحمه الله، والذي كان اهتمامه خاصة ـ موجها إلى نشر تعاليم الدين ومبادئه القيمة بين أبناء الملة، والدفاع عن مذهب التصوف الذي أصبح غرضا لبعض الجهلة المغرضين الذين لا يعرفون من التصوف إلا إسمه، ولا من الصوفي إلا رسمه، ومن ثم نجد الشيخ (عدة بن تونس) يخص التصوف في

مجلته بركن تحت عنوان «« مجالس التذكير»» وقد تتبع (رشيد محمد الهادي بن تونس) تلك المجالس في أعداد (المرشد) التي عالج الأستاذ فيها عددا من المواضيع في التصوف وأحوال الصوفية والمريدين والسالكين، وكشف اللثام عن حقيقة الطريقة والشريعة، واستوفى الشرح عن مقام الإحسان، وحدد الغاية من الطريقة، وهي التربية والسلوك لإكتساب المعارف الإلهية، والمواهب اللدنية، والأسرار الذوقية التي تفيض من قلب السالك الواصل منة من الله، فضلا عن أن المريد يجب أن يكون حبه للحضرة الالهية شغله الشاغل، ليتحقق بالنور الالهي المتجلي الذي يجعل العارف يحب كل شيء في الوجود، لأنه يكون في هذا المقام كقول بعض العارفين:

(من نظر الأشياء بعين التعظيم استمد منها وكان عند الله عظيما، ومن نظرها بعين الإحتقار استمدت منه وكان عند الله حقيرا) وهكذا يستمد العارف معارفه وحكمه من لوح الموجودات وأسراره من فيض التجليات.

ثم يقف الأستاذ ـ قدس الله روحه ـ وقفة قصيرة

موفقة عند (الذكر) وأفضله (لا إله إلا اللّه) (1) مبينا اتصالها بالحضرة الإلهية، وشبه الأذكار وتعددها بالأدوية المختلفة في علاج الأمراض التي تصاب بها الأجسام. ثم كشف عن حقيقة التصوف الذي يمثل زبدة الدين وجوهره الأصيل، ومن ثمة كان الصوفي أطهر الناس قلبا، وأكثرهم نورانية، وأشدهم تمسكا بتعاليم الدين، متحققا بمقامات أهل اليقين، متخلقا بأخلاق سيد المرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ .

وأخيرا فإن مقالة الشيخ (مداعبة بين العقل والروح) يقرر فيها أن للمعرفة طريقا غير الحواس وغير العقل؛ وأن تجارب الصالحين دلت على أن تزكية النفس وتطهيرها، والتقرب إلى الله بأنواع المجاهدات؛ كل ذلك يسمو بالإنسان إلى عالم الروحانية، تتطلع فيه النفس إلى الملأ الأعلى، فيفيض عليها من نفحات وإلهامات عن طريق (البصيرة) الموصل إلى المعرفة اليقينية.

---

(1) حديث: «أفضل ما قلت أنا والنبيئون من قبلي لا إله إلا الله».

يقول الإمام (محمد عبده) في (رسالة التوحيد) (أما أرباب النفوس والعقول السامية من العرفاء ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء؛ فكثير منهم نال حظه من الإنس مما يقارب تلك الحال ...... لهم مشارفة في بعض أحوالهم على شيء من عالم الغيب، ولهم مشاهد صحيحة في عالم المثال لا تنكر عليهم .... ومن ذاق عرف ومن حرّف انحراف) . وسميت هذه المجالس:

مجالس التذكير

في تهذيب الروح وتربية الضمير

هذا وقد بذلت جهد طاقتي في مقابلة الأصل المطبوع ليكون العمل أقرب إلى الكمال، مصححا ما فيه من أخطاء أو تصحيف،وأضفت بعض العناوين التي أراها ضرورية للفكرة التي يعالجها الكاتب؛

تسهيلا للقاريء الكريم؛ وعسى أن أكون بهذا العمل قد يسرت دراسة تراثنا الثقافي المعاصر، فإن أصبت فبتوفيق من الله وهدايته، وإن أخطأت فلي عذر المجتهد. وأسأل الله التوفيق على جادة الإستقامة؛ وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

الأستاذ

يحي الطاهر برقة بوهران

الإيمان نور من نور الله

ما من مؤمن أكمل الله إيمانه، وأتم عليه نعمه، إلا وتراه مهتديا في جميع أفكاره ونظرياته. وأنه مهما باشر عملا من أعماله، سواء الدينية منها، أو الإجتماعية، إلا وأمده الله بالتوفيق، حتى لا يدخلها، ولا يخرج منها، إلا وهو فارح مسرور، بما أنعم الله عليه من التيسير والمساعدة، وما ذلك والمنة لله، إلا مصداق قوله تعالى: **(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم)** لأن الإيمان نور من نور الله، والمؤمن زيادة عن كونه مغمورا في نور الله، فهو فيه أيضا، لأن الحق قد تجلى على خلقه بنوره، فقال في محكم كتابه: **(الله نور السموات والأرض)** فتبين من صراحة هذه الآية، أن الخلق كلهم قائمون بنور الله، ولولا نور الله المتجلي في كل مظهر من مظاهر الأكوان، لما رأيت لها أثرا، ولكن ليس الشأن أن يكون الإنسان كحجر الوادي، ظاهره محاط بالماء، وباطنه من أشد ما يكون جفافا ويبوسة.

أما المؤمن فهو بخلاف ذلك، فهو كالفاكهة ربما باطنه ألين بكثير من ظاهره لتمكنه من تجلي نور

الله فيه، حتى قال: ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حديثه الشريف: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله).

وكان من دعائه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند خروجه إلى أداء المكتوبة: (اللهم اجعل في قلبي نورا، وفي بصري نورا، وفي سمعي نورا، وعن يميني نورا، وخلفي نورا، واجعل لي نورا، وفي عصبي نورا، وفي لحمي نورا، وفي دمي نورا، وفي شعري نورا، وفي بشري نورا، وفي لساني نورا، واجعل في نفسي نورا، وأعظم لي نورا) . هكذا كان دعاؤه مقبولا، حتى كان يمشي من بين الناس، وهو نور على نور، حتى قيل في شمائله: (انه كان يمشي تحت الشمس، ولا ظلال له) وحتى قيل فيه أيضا: كيف ينشىء الظلال ضياء.

هذه مرتبة عالية ننوه بها لشأن المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونلمح بها كذلك إلى المؤمن، عساه أن يتخذ من رسول الله أسوة حسنة، فيتعرض لتجلي ذلك النور فيه، لعله يصادفه في يوم من أسعد أيامه، فيضرب فيه بسهم ولو بعشر في المائة، إن لم يستطع

المائة في المائة، إذ محور مذاكرتنا يدور حول التحصيل على الشيء من ذلك النور الإلهي العميق الجليل، الذي ما اكتسبه عبد إلا كان له نور يمشي به في الناس، وتلك هي الغاية المنشودة من رسوب الإيمان في قلوب المؤمنين، ﴿ومن لم يجعل الله له نورا، فما له من نور﴾ ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾.



حقيقة الطريقة

سئل مولانا الأستاذ ـ رضوان الله عليه ـ عن حقيقة الطريقة، وما هي غايتها، فقال: ـ رضي الله عنه ـ «غاية الطريقة هي الركن الثالث من أركان الدين، أي الإحسان، ومن لم يكن محسنا فلا حظ له في الطريقة، ومن كان له حظ من الإحسان فهو في الطريقة بحسب حظه من الإحسان، وقد سئل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الإحسان فقال: **(هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)** وهذا الحديث الشريف قد تفنن فطاحل الرجال في قصده ومعناه، تفننا عجيبا غريبا، وهو جدير بذلك كله، وبأكثر منه، لأنه كنز من كنوز الحكمة، لا نفاد له، خصوصا لدى من له نصيب من علم القوم الصوفية رضي الله تعالى عنهم ـ، وإذا لمح إلى تلك الغاية الغامضة لمح إليها بقوله: ـصلى الله عليه وسلم ـ**(كتب الله الإحسان على كل شيء، حتى إذا قتلتم، فأحسنوا القتلة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته)** فانظر ـ رحمك الله ـ إلى ذلك التعميم المدهش بقوله: **(كتب الله الإحسان على كل شيء)** ومن المعلوم أن من علم شيئا قد غابت عنه أشياء،

وماذا عساه يعلم من قوله في أدب العبادة، المعبر عنه بالإحسان، (**هو أن تعبد الله كأنك تراه**)، فإن كل من يقف قليلا لتأمل هذه الفقرة بإمعان تام، إلا ويجد نفسه ملزوما بالحضور مع المصلىَّ إليه، وبإثباته؛ إما في جهة من الجهات، وإما في جميع الجهات، وإما في صورة من الصور، أو في جميع الصور، لأن الفكر لا يرتاح له بال، إلا بصورة من الصور، أو ظن من الظنون، إذا لم يتوصل إلى حقيقة الشهود والعيان، خصوصا وهو مقصود من عبارة الحديث، حيث كانت مشتملة على نوع من البلاغة المسمى «بالإستخدام» وهو عود الضمير على مذكور يفهم منه شيئا زائدا على ما ذكر من قبل، وهو قوله: (**فإن لم تكن تراه**) فكأنه يقول: هو أن تعبد الله لكي تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. ولم يكرر في العبارة الثانية أداه التشبيه، والمعنى أنه لم يقل: فإن لم تكن كأنك تراه، فحذفه لأداة التشبيه في العبارة الثانية، يشعر بتلميح إلى الرغبة في مشاهدة الحق حالة العبادة، وهي غاية الإحسان الذي بنيت عليه بقية الأركان.

ومن حكمة الله في خلقه، أن الإنسان لا يتمتع بشيء إلا إذا بلغ غايته فيه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾.

كتبنا هذه الكلمة عن مقام الإحسان، وهو الركن الثالث من الدين الإسلامي الحنيف، وليست هي بكافية ولا بشاملة لكل مراميه العالية الغالية، إنما ضربنا بسهم فيه في الجملة، تنبيها لبعض إخواننا الذين تهمهم معرفة الدين، واستطعام حلاوة أسراره وأنواره، عسى الله أن يبعثنا وإياهم مقاما محمودا في مقعد صدق عند مليك مقتدر.



الغاية المنشودة في طريق الله

مما يجدر ذكره في هذا الموضوع. هو أنه ينبغي للفقير الصادق في نسبته، أن يتدرج في مقامات التربية والتهذيب، إلى أن يحصل على حظه من مواهب الطريقة، وإذا كان الفقير على يقين من أنه قد بذل جميع مجهوداته من صدق ومحبة وحسن نية، ولم يظهر له شيء، فلا يخلوا الأمر: إما قلبه ميت، وإما صاحب الطريقة ميت. أما إذا كان الشيخ حيا والمريد مستعدا لتلقي الحياة فلا تكون النتيجة إلا الحياة الكاملة.

ويقال: إن المريد إذا كان مستعدا لحمل الأسرار متخلقا بأحسن الأخلاق، فلا يبعد أن ينوب عن شيخه في الكثير من مواقفه الجليلة، ويكون في هذا المقام بمثابة النسخة من الكتاب، أو بمثابة المصحف الكريم في الدلالة على كلام الله، قال بعضهم ـ رضي الله عنهم ـ مشيرا لهذا المعنى:

فلم تهوني ما لم تكن في فانيا
ولست بفان مالم تجتلى فيك صورتي

هذه هي الغاية المنشودة التي يصل إليها المريد الصادق في طريق الله؛ بحيث يصير أن من يجتمع به، فكأنما اجتمع مع شيخه، لما يكسوه الله به من حلة الرضى والقبول، وحسن التأثير في مخلوقات الله، فبتذكيره يتذكر الغافل وبتنويره يتنور الجاهل، وإذا أصبح الغافل ذاكرا لمولاه، والجاهل شاكرا لعقباه، فذلك هو الدليل الواضح على حياة النسبة، وحياة صاحبها رضي الله عنه وأرضاه.

ثم أقول: إن الغاية المشار إليها في هذه الكلمة، هي التي بنيت عليها دعائم الطريقة الصوفية، وهي المسماة أيضا بطريقة التربية والسلوك، وهي المتعينة على كل ذي فضل أو إيمان، أن ينتسب إليها. ومن لم يصحب شيخا من أهل التربية والسلوك، فهو باق على جاهليته بمرام الكتاب والسنة العالية، ولو قرأ من العلم ما يسمّى به استاذا كبيرا، لقوله: ـ عليه الصلاة والسلام ـ **(من لم يعرف إمام زمانه. مات موتة جاهلية)** ولكل زمان إمام. سنة الله في خلقه. **(ولن تجد لسنة الله تبديلا)** وذلك من تمام عدله، وحكمته في خلقه، ومن فاتته هذه الحكمة فقد فاته فضل

كبير (ومنْ يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا).

وعليه فلم يبق على المنصف، إلا أن يعترف بوجود الإمام، ثم يتعين عليه أن يعترف أيضا بفضل التربية والسلوك، وهي العقيدة المنجية الباعثة لصاحبها على اعتراف العارف، واكتساب العوارف من أهل المواهب اللدنية، والمكاسب الذوقية التي لا تنقطع بركاتها، ما دام على وجه الأرض من يقول: الله، الله. قال صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة حتى لا يبقى على وجه الأرض من يقول: الله، الله) وقال أيضا: (لا تقوم الساعة إلا على أشرار الخلق) والعياذ بالله.

وحيث نحن من حزب اللّه الذين يقولون: اللّه، اللّه. قلنا البشارة والمنة للّه، أننا لمن خيار عباد اللّه، وقال أيضا (خيركم من إذا رؤوا ذكر اللّه).



وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين

جرت عادة مشائخ العلم الكبار، ومشايخ الطرق الأخيار، أن يجيزوا البعض من أتباعهم، إما في تدريس بعض المعلومات كالتفسير والحديث والفقه والنحو وما شاكل ذلك، وإما في إعطاء الطريق وبث الهداية والارشاد والتذكير من بين الناس بعد توسمهم الكفاءة فيمن يجيزونه في ذلك، وقد تصدق فراستهم في الكثير ممن أذنوا له، وقد تتخلف أيضا في البعض منهم **(سنة الله في الذين خلوا من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلا)**.

وعلى أثر هذا النمط الأخير من المأذونين في تذكير الخلق وإرشادهم إلى الحق، قد ظهر عليهم أنهم لا يريدون بذلك وجه الله، إنما جعلوا تلك الإجازة حبالة لجمع حطام الدنيا باسم التذكير والإرشاد، وإن يكن من هذا النوع من ينتسب إلى مشايخ الطرق، الذين هم على بينة وهدى من الله، فإنه لا صلة بينه وبين تلك الطريقة، إلا أن يتوب إلى

الله توبة نصوحة مصحوبة بالإقلاع والندم، وإلا فهو دجال كذاب، يعمل لمصلحته الشخصية بطريق غير شريف، لا يليق إلا بمثله ممن لا شرف لهم ولا خلق ولا دين، لأن المشائخ ـ رضوان الله عليهم ـ ما أمروه إلا ليعبد الله مخلصا له الدين، تلك هي أوامرهم، وعليها عاشوا، وعليها ساروا إلى الله، والله ولي المتقين.

نحرر هذه الكلمة وننشرها على أعين الناس، ليشهدوا أننا ما أجزنا أحدا في طريقتنا العلوية الربانية الكريمة إلا على نية ليكون داعية خير، ومظهر صدق ووفاء، لا ليكون سمسارا ولا مهدارا ليبعث الناس بحيلته، وألفاظه المزوقة، على إكباره وتقديره واجتلابه لما في جيوبهم، كلا والف كلا! ووالله ما كنا ولا يوما واحدا على تلك النية أو ذلك العمل، وإني وأيم الله لأبغض كل البغض من تلبس بتلك الصفة أي صفة الإحتيال والإختلاس لما في جيوب الناس، ليقيننا أن الرزق بيد الله، (والله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر).

وإتماما لهذا الموضوع فها نحن ننشر صيغة من

صيغنا التي أجزنا بها بعض إخواننا، ورجاؤنا فيهم أن يحافظوا على تنفيذها، وأن يعملوا بمقتضاها وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

وهذا نص، الإجازة: بسم الله الرحمن الرحيم، نحمدك اللهم يا من الهمتنا صحبة المتقين، وسلكت بنا طريق الهدى، وقلت وقولك الحق **(ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا)**. فأتمم اللهم علينا نعمتك، وكن لنا على خدمة نسبتك عونا ومنجدا وصل اللهم على سيدنا محمد إمام الهداة المرشدين، النبي الأمين المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله الطاهرينا، وصحابته الأبرار المهتدين، وعلى من اقتفى أثرهم من إخواننا المؤمنين.

أما بعد: فإننا ـ بتوفيق الله، ومحض فضله ـ أذنا إلى أخينا في الله، ذي النفس الزكية، والأخلاق المرضية، ولي الله سيدي فلان، في إعطاء الأوراد العامة من الطريقة العلوية الربانية،، رغبة في نشر الهداية، وبث تعاليم النسبة المؤسسة على منهاج كتاب الله، وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإننا نسدي نصيحتنا له ولأنفسنا، حسبما علمنا لما

ورد في الأثر الشريف عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ (من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم) ونحن لا نصيحة لنا أبلغ، ولا تذكير لنا أنفع، من قوله تعالى: (والعصر إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) كما نحذره كل الحذر، أن لا يجعل نسبة الله حبالة للإرتزاق، وسلما لطلب المحمدة والجاه، إنما يقوم بدعايتها مخلصا لوجه الله (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى، وإلى الله عاقبة الأمور).



القبلة العينية في الإسلام



ذكر الفقهاء ـ رحمهم الله ـ في كتبهم الفقهية، أن القبلة قبلتان: قبلة ظنية، وقبلة عينية، وصاحب القبلة الظنية هو الذي يصلي إلى البيت، ولكن من وراء حجاب، فوسع عليه في ذلك حتى قيل في حقه: ما بين المشرقين قبلة. بحيث إذا قام بصلاته واشتبه عليه أمر القبلة، فليتجه نحو مطلع الشمس وليصل، وصلاته صحيحة لجهله بالقبلة، ولبعده عنها. وهذه القبلة هي القبلة الظنية.

أما صاحب القبلة العينية الذي أكرمه الله برفع الحجاب عنها، وتفضل عليه بالوصول إليها، حتى أصبحت عنده قبلة عين وشهود، ليس بينها وبينه حجاب، فهذا لا تغنيه مطالع النور عن القبلة العينية، إنما يتمسك بالمطالع النورانية، ويتوجه إليها عند صلاته من لم يزل مقيدا في حجابه عن رؤية البيت.

أما من أوصله الله إليها، فهي لا تقبل أن يلتفت إلى غيرها، ولو كان ذلك الملتفت إليه مظهرا

نورانيا، وإذا التفت إليه بعد وصوله إليها، عُدَّ لَهُ ذلك إنحرافا عنها، والمنحرف عن القبلة صلاته باطلة، ولو كان مستندا ظهره إليها فإنه لا يغنيه ذلك الإتصال بها، عن التوجه إليها، كما أنه لا تغنيه رابطته القلبية، عن التوجه بالوجه نحوها، قال تعالى في محكم كتابه: **(وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره)**.

أما من يتأمل في هذه الآية الكريمة تأملا جيدا، فلا ريب أنه يدرك أن الإتصال بالبيت، سواء ببدنه أو بقلبه، لا يغني المصلي شيئا عن التوجه لوجهه نحو البيت، لأن التوجه بالوجه شرط في صحة الصلاة، وإن كانت الصلاة لله وحده، لا شريك له **(ولله المشرق والمغرب)**.

وهنا يجمل بنا أن نقول: إن البيت العتيق، هو أكمل واسطة في قبول العبادة إلى الله، فمن صلى لله على طريق بينة، فصلاته مقبولة، ومن أتى بها على غير البيت، فقد أتى البيوت من غير أبوابها، وكان عمله مردودا عليه ونزيد نافلة أيضا فنقول: إن المنكر للوسائط لم ينكرها إلا لجهله بحكمتها، فإن

الله ما وضع البيت، وجعله قبلة إلا ليجمع قلوب المسلمين عليه، وإن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما شرع لنا الامامة في الصلاة، إلا لجمع القلوب على الله، حتى قيل: إن الصلاة جماعة تفضل صلاة الفذ بدرجات كثيرة، وهكذا ما شرعت الخلافة في الإسلام، إلا لجمع قلوب المسلمين على امامهم الحق، حتى قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (لا يحل دم امريء مسلم إلا لثلاث: النفس بالنفس، والشيخ الزاني، والمفارق للجماعة) ويعنى بهذا الأخير، أي المتخلف عن مبايعة امامه، وعليه فهل في ذلك ما تنكر المنكرون؟



الـذات العـليـة

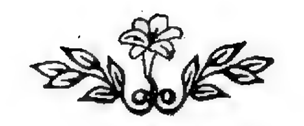
ما أبدعك أيتها الذات العلية الحقيقة الأزلية، وأنت سر الوجود، وجمال الكون، ونسمة الحياة، وبهجة النفوس، وطمأنينة القلوب.

ما أسماك أيتها الحقيقة الأزلية، تشعين بأنوارك على المطيع والجاني، والشكور والكفور، والقاصي والدائي، والصغير والكبير، وتحيطينهم بعيني عنايتك، وتبلغهم كمالهم المنشود، فضلا منك واحسانا.

ينكر وجودك المبطلون مع أنك أظهر من الضحى، ويجسمك المشركون، مع أنك أخفى من السير الخفي، باسمك تزهق النفوس وتستغوى العقول، وأنت برئية عن الظلم والعدوان، ولإكتساب رحمتك تحرق البخور، وتجري الطقوس، وتوقد الشموع، وأنت تعاليت عن كل ذلك علوا كبيرا.

فيا من بقدرتها تصان النفوس من الهلاك، وبذكرها تغدى الأرواح، وتطمئن القلوب، وبهيمنتها يستقيم نظام الأكوان، وبقدرتها تسير السيارات في

مداراتها، وتتقلب الأزياء، نسألك أن تفيض علينا
منْ نفحات قدسك، وتسقينا من رحيق حبك، حتى
نضحي بشهواتنا من أجلك، ونتخلص من نير المادة
التي تستهوى زخارفها النفوس، وتحظى بنور
معرفتك التي تخلع على الأرواح حلل السعادة
الأبدية، والفوز المستمر.



التربية في طريق القوم

التربية والتهذيب شيئان لازمان لكل من أراد أن يحقق معاملته مع الحق سبحانه وتعالى، وكل من رغب في ذلك، ولم ترضى نفسه بصحبة شيخ حق في الحقيقة بارع، فرغبته باطلة، ودعوته عاطلة. ثم هو هيهات أن يصل إلى ذلك المقصود الأسنى، والمقامات الحسنى، لقوله تعالى: ﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾ ومن لم يأت البيت من بابه فحظه منه الطرد أو القطيعة، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

قال مولانا الأستاذ سيدي أحمد بن عليوة - رضوان الله عليه - في كتابه «المواد الغيثية» ما نصه: عند قول سيدي أبي مدين رضي الله عنه «من لم يأخذ الأدب من المتأدبين، أفسد من يتبعه »، ذكر أن المريد لابد له من شيخ في الطريقة يسيره ويعلمه كيفية الاقبال على الله، والادبار عما سواه، ويطلعه على رعونة نفسه وعمائها، ومن لم يكن له في الطريق دليل، يخشى عليه التعطيل. قال أبو علي الثقفي رضي الله عنه: «« لو أن رجلا جمع العلوم

كلها، وصحب طوائف الناس، لا يبلغ مبلغ الرجال إلا برياضة من شيخ، أو إمام أو مؤدب ناصح >>، ومن لم يأخذ أدبه من آمر له، أو ناه يريه عيوب نفسه، ورعونة أعماله، لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملة. أي ومن اكتفى في الطريق بعقله ورأيه، وزعم أنه يحصل على شيء بدون مرشد، فيكون هالكاً في نفسه، مضرا بغيره، وهو قوله: «أفسد من يتبعه»، ومن لم يكن له شيخ في الطريق، فهو لقيط، وتجد أكثر الناس لما عظمت عليهم أنفسهم، ولم يرضوا بتسليمها للمرشد، يعتمدون على النادر الذي هو كالمعدوم في الحكم، ويقول بعضهم: ربما كان سلوكي على يد الخضر عليه السلام، ويقول الآخر: ربما كان سلوكي على يد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه يرقيني، ولم يعلم بأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمره باتخاذ الوسيلة، وكل ذلك أصابهم مما هم عليه من الكبر الذي قطعهم عن الله، وعن المنتسبين إليه الذين فرغوا من تأديب أنفسهم على يد مشائخ، عالمين بأحكام المريدين، وما شأن هذا المدعي حتى يشتغل رسول الله ـ صلى

الله عليه وسلم ـ جل قدره بتربيته، وهو يعلم أن سنة الله في خلقه جرت بالوسائط، وحذفها اختلال (ولولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط)، وإذا كان الأمر كذلك على مزاعمهم، والحقيقة بخلاف ذلك، فلم انتصبت الصحابة لبعضها بعضا في تلقين الذكر؟ وذلك معلوم بالضرورة من سنتهم، وسنة التابعين من بعدهم، خلفا عن سلف، وسلسلة الطريق تشهد بذلك، وما منع المدعين عن أخذ الأدب من أصله إلا دعواهم التي لا توبة بعدها، لما قيل أن باب التوبة مفتوح إلا على المدعى، فإنها سدت في وجهه، لأنه لا يرضى بترك دعواه وتسليم نفسه، ولا تحسب أن الأدب المذكور في قول المصنف، هو مجرد تعليم سيرة القوم، بل هو كناية عن أدب السرائر، أي أدب العلم مع ربه حالة ظهور الحق عليه، ولم يرد هذا الأدب إلا من أخذ الله بيده، وألهمه أن يأخذه من أصله، لأن أدب المريد مع الله، هو محوه من لوحة الوجود مع وقوفه مع الحدود، وهذا الأدب لا يؤخذ من الأوراق، بل هو موقوف على الأذواق، وله معادن معروفة عند أهلها، وله سيمة

تدل عليه، قال تعالى: (وأتوا البيوت من أبوابها)، وعليه يجب على كل منتسب إلى الله، أن يراجع نفسه، هل له نصيب من ذلك العلم أم لا؟ فإن كان له شيء منه فليحافظ عليه، وإن لم يكن له فلا يغر نفسه، لأن اليوم ليس هو الغد، حيث تحق الحقائق، ويظهر كل كذاب وصادق (يقول الإنسان يومئذ أين المفر كلا لا وزر) إلى آخر الآية. فأين الدعوى، فإنها تكون على صاحبها يومئذ بلوى، ومن المواعظ ما كتبه بعض العارفين إلى عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - قال: «أما بعد، فخف مما خوفك الله، وأحذر مما حذرك الله، وخذ مما في يديك، لما بين يديك، فعند الموت يأتيك الخبر اليقين»، وقال أيضا: «إن الهول العظيم والأمور المفظعات أمامك، ولابد لك من مشاهدة ذلك بالنجاة، وأما بالعطف، وأعلم أن من حسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر في العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضل، ومن حلم غنم، ومن خاف أمن، ومن أمن اعتبر، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، فإذا زالت فارجع، وإذا ندمت

فاقلع، وإذا جهلت فاسأل، وإذا غضبت فامسك ››.
فتمسك بهذه الموعظة أخي وأحذر مما أنت بصدده، فإن الناقد بصير، ‹‹ وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ››.



أحوال الطريقة المثلى



طريقة القوم الصوفية ـ رضي الله عنهم ـ هي الطريقة المثلى عند من أكرمه الله بنورانية الإيمان، أما من طمس الله على أموالهم، وأشد على قلوبهم، فأولئك عنها مبعدون، لا يسمعون حسيسها بموت قلوبهم، وعماء بصائرهم، وهؤلاء هم الذين لا حظّ لهم في معرفة الله، وهم المحجوبون عنه في الدنيا وفي الآخرة، وهم الذين يقفون حجر عثرة في طريق الدالين على الله من أيمة الدين المهتدين، وهم الذين لا يؤمنون بلقاء الله حتى يرون العذاب الأليم.

أما الطريقة المؤسسة على قدم النبوءة، فهي الطريقة التي يروي عنها أن أولها جنون، ووسطها فنون، وآخرها سكون؛ أما أولها جنون فلانها تأخذ بلب الفقير، وتستولى على مشاعره، فتأخذه أخذ عزيز مقتدر فيصبح لها مملوكا من حيث باطنه، ومن حيث ظاهره، وتراه كلما لاحت عليه الأنوار الإلهية، وخضع لها خضوع العبد لسيده، فيظنه الجاهل أنه مجنون، لتطوره في أحواله من ضحك إلى

بكاء، ومن صبر تارة وجزع أخرى، إلى غير ذلك من أحواله الكثيرة، وهو في جميعها لا يملك لنفسه أي تصرف من نفع وضر إلا ما شاء الله، والله يخلق ما يشاء ويختار.

وأما كون وسطها فنون، فلانه قد يشعر بنفسه بعض الشعور، وفي تلك الحالة يكون باطنه على المشاهدة، وظاهره على المجاهدة، من القيام بالفرض والسنة حق القيام، وفي تلك الحالة أيضا يكون مطمئن القلب لإستماع النداء وتلقي الخطاب من الله، وذلك المقام هو المشار إليه بقوله تعالى: (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي). وذلك الخطاب لا يسمعه إلا من اطمأن قلبه بذكر الله، وأصبح مستعدا لإستماع الخطاب، وإلا فكم من عبد يظن نفسه أنه مطمئن النفس، ولكن لم يزل في صممه عن استماع خطاب الله له، وهؤلاء هم الذين يذهب بهم الغلط إلى أن الإنسان قادر على تربية نفسه وتدريجها إلى الله من غير سند يستند عليه في طريق الله، وهذا مرض عضال قد فتك بالكثير من

الصلحاء، فضلا عن غيرهم من أهل الفلسفه، والرياضات، مع أن حكمة الله مقرونة بصحبة المرشد، الدال على الله بالله، **(ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا)**.

ومن آراد أن يتحقق بهذه الحقيقة فليتأمل في أحوال الرسل عليهم الصلاة والسلام، فانه ما من رسول انقطع إلى طلب معرفة الله، إلا وفجأة الملك بالوحي وهو جبرائيل عليه السلام، وهو رسول الله إلى رسله القائمين بتبليغ دينه، وتنفيذ أحكام شريعته، وهو في نزوله ذلك وممارسته لهم، هو الروح الأمين الدال على الله بالله، وقد سار برسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليلة المعراج إلى أن قال له: **(وأن إلى ربك المنتهى)**. ومعناه أنه قد بلغه منتهاه من معرفة الله، وحيث أن السير سيران: سير إلى الله وهو لا يكون إلا على يد المرشد، وسير في الله قد يشترك فيه الشيخ والمريد، وبهذا الإعتبار زاد النبي - صلى الله عليه وسلم - في التوسع بمعرفة الله، وشهود أنواره وأسراره التي يعجز اللسان عن التعبير عنها، ويقول كما قال القرآن: **(فأوحى إلى**

عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى) وهنا قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (من عرف الله كلّ لسانه) ويعني باللسان هنا لسان الرأس لا لسان القلب، ولسان القلب هو المعبر عنه أيضا في بعض اعتباراته بلسان الحق، ولهذا يقال: إن العارف إذا اشتد به الحال نطق عن لسان الحضرة الإلهية، وهي لسان الحق كما يقولون، ومن تأمل عبارتنا هذه ينفك عنه المشكل من أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد عرف الله حق معرفته، وكل لسانه، ولكن نطق قلبه، فملأ القلوب نورا، والوجود عبرة، (لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد).

وعلى اثر هذا النباء العظيم تسير الصوفية ـ رضي الله عنهم ـ واحد بعد واحد كل في زمانه وعصره، وكل ينفق مما آتاه الله، وتجري عليه الأحوال المذكورة غالبا، من جنون وفنون، وسكون، وتراهم في أيام تفننهم (كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها).

أما في أيام سكونه، فقد يكاد أن يكون كأحد الناس من جهة اعتدال مزاجه فيما يرجع لحرارة

باطنه، واستواء ظاهره على تنزله، لقبول الحياة العادية والقيام بمبادئها ككل رجل عادي، وربما قد يقبل على شؤونه الدنيوية من كد على عياله، واهتمام بنفقته، ولكن لا يبالغ في ذلك مبالغة تشغله عن مولاه، ويكون في ذلك الحال كبعض الحيوانات التي تستطيع أن تعيش في الماء، وتعيش في خارجه، ولكن لا تستطيع الإنفصال عن الماء تماما، لإقتران حياتها به، وإنها لا تخرج منه إلا عند الحاجة إلى البر، فتقيم فيه بقدر حاجتها منه، والعارف بالله المتغلغل في المعرفة، لا يخرج إلى الخلق إلا عند مسيس الحاجة إلى مقابلتهم، ولا يجلس عندهم إلا بقدر الحاجة، فإذا قضى حاجته انتفض عنهم ورجع إلى أنسه بالله، ولا يتأنس ببعضهم إلا إذا كانوا ممن يشاركونه في غوصه وانحياشه ومفره إلى الله، وهذا المفر والإنحياش عن الخلق، هو المعبر عنه بالسكون الذي يلوذ به العارف بالله، وهذا بالتقريب، وإلا فالمقام أوسع من ذلك وأبهر.

الطهارة عند القوم الصوفية

قرر الفقهاء أن الطهارة البدنية لا تحصل لصاحبها إلا بالماء المطلق، الباقي على أصل خلقته. أما القوم الصوفية ـ رضي الله عنهم ـ، فإن الطهارة عندهم لاتكون كاملة إلا إذا كانت شاملة للظاهر والباطن، وبهذه الطهارة البدنية والقلبية يتأتى للمؤمن أن يقف بين يدي الله، قائلا حالة تعبده: **(إياك نعبد وإياك نستعين)**، كما يمكنه أيضا أن يكون على صلاة دائمة غير منقطعة، ولا مؤقتة، فصاحب هذه الصلاة زيادة عن مشاركته في الفرائض المؤقتة، فهو يشارك في الصلاة التي لا انفصام لها، كما أنه من المعلوم أيضا لا يصل إلى تلك الصلاة إلا بالطهارة الكاملة، أي طهارة الظاهر والباطن.

ذكرنا أن الطهارة البدنية تحصل بالماء المطلق، وأما الطهارة القلبية فلا تحصل إلا بذكر الله، لقوله عليه الصلاة والسلام : **(لكل شيء جلاء وجلاء القلب ذكر الله)**، وقد ورد في الذكر شيء كثير،

فلا نطيل بذكره، ويكفينا منه ما ذكر، لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا، لأن القلب يصدأ باقتراف المخالفة، كما يصدأ الحديد، وجلاؤه ذكر الله، وهذا الذكر هو المعبر عنه أيضا في اصطلاح القوم الصوفية - رضي الله عنهم - ، بماء الغيب، وقد أشار إليه بعضهم بقوله:

توضأ بماء الغيب إن كنت ذا سر
وإلا تيمم بالصعيد أو الصخر
وقدم إماما صرت أنت أمامه
وصل صلاة الفجر في أول العصر
فهذه صلاة العارفين بربهم
فإن كنت منهم فانضح البر بالبحر

أما صاحب هذه الأبيات، ومن على شاكلته من أئمة التصوف، فلا غرض لهم من التنويه بهذا الماء الغيبي، إلا لعل الله يقذف في قلب سامعه روحا منه، تنهض به إلى الله، فإن المؤمن وإن بلغ ما بلغ في التقرب إلى الله، فلا زال خطاب القرآن يعبده، بقوله: **(اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين)**، مع أنه

من المنعم عليهم، ولو لم يكن منهم لما أو قفه الله بين يديه، ولا ما وفقه للتطهير والصلاة، ولكن مثل هؤلاء المؤمنين، كمثل من سبقهم من سلفهم الصالح الذين خاطبهم الله بقوله: **(وعدكم الله مغانم كثيرة تاخذونها، فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم، ولتكون آية للمؤمنين، ويهديكم صراطا مستقيما، وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها)**، فتأمل رحمك الله، كيف ذكر الله أنهم من المنعم عليهم، وبالفعل قد متعهم بمغانم كثيرة، ولكن لم يغن ذلك عن التنويه بنعمة عظيمة، أو غنيمة كبيرة، قد أحاط الله بها، ومن لم يبلغ منه غاية القرب حتى يغيب في القريب عن القرب، فهيهات أن يصل إلى هذه الغنيمة التي أحاط الله بها **(والله بكل شيء محيط)**.

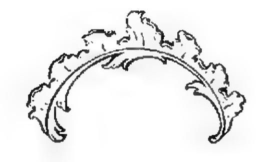
أما مثل صاحب هذه الحالة، كمثل من يولي وجهه شطر المسجد الحرام، لأداء فريضته، ولكن تراه يصلي إلى مكة من وراء حجاب، وهو وإن صحت صلاته، إلا أنه لم يتمتع برؤية البيت، ولا بالطواف به سبعا ومن المعلوم أن هناك فرقا كبيرا بين من يصلي إلى قبلة إجتهاد، وبين من يصلي إلى قبلة عين

أو قبلة حق اليقين، وهؤلاء هم الذين على صلاتهم دائمون، لأنهم مقيمون في نفس الحرم، ومن يكن مقامه بحرم الله نفسه فهو على عبادة دائمة، لأن مقامه بحرم البيت عبادة، قال بعض العارفين:

تالله نوم العارف يغني عن ذكره

فكيف بصلاة العارف إذا صلى

نعم ، إن المنقطع لله، هو في حضرة الله، ونفس مقامه في حضرة الله عبادة، سواء مستيقظا أو نائما، وهذه الغاية الشريفة، وهي الضالة المنشودة للقوم الصوفية ـ رضي الله عنهم ـ وأنه ما من عبد وفقه الله إلى صحبتهم، وأكرمه بمحبتهم وتعظيمهم، إلا كان كمشكاة فيها مصباح، طبقا لما نصت عليه الآية: **(أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس)**.



الضمائر عند القوم الصوفية

قد تقرر عند علماء النحو واللغة، أن الضمائر كيفما كانت متصلة أو منفصلة لا تزيد عن إثنى عشر ضميرا، والضمير اصطلاحا هو ما كني به عن الظاهر اختصارا، فإذا سألت مثلا من أنت فبدل أن تقول أنا «أبو حفص عمر الفاروق» فلك أن تقول أنا، إلا أن ضمير أنا وما شاكله من أنت وأنت وأنتما وأنتم وأنتن ونحن، حلل قابلة لأن تلبسها كل جماعة سواء من الذكور أو الإناث، كيفما تنوعت تلك الجماعة في جنسياتها، أو دينها، أو وطنها، وهكذا الضمائر المفردة كأنا، وأنت، والغائبة منها، كهو، وهي، وهم، وهن، فهي كلها كما ذكرنا صالحة لأن تسمى بها جميع الأفراد، أو المثنيات أو غيرها، وحيث كانت قابلة لأن يتسمى بها كل منها، فالأولى أن نحافظ على طهارتها، وأن لا نلطخها بشيء من الصفات الذميمة، كالفسق والفجور مثلا.

نقول هذا وهو غير مفهوم لذى السامع تقريبا، ولكن إذا نظرنا إلى الإنسان فنراه بطبيعة الحال، لا

يحافظ إلا على تبريئة نفسه التي يقع عليها ضمير أنا في جميع أطوارها، فترى الإنسان يبذل كل جهد في المحافظة على صيانة ضمير أنا، ولا يبالي إذا كان في تنزيهه تلويث هو وأنت وأنتم، وينسى ـ عفا الله عنا وعن الجميع ـ أن ذلك الضمير المعبر عنه بهو وأنت سوف يلبسه في يوم من الأيام، ومن المعلوم إذا كان قد لطخه في موقف من المواقف، فلا شك لا يجده إلا ملطخا بالذي لطخه به، إن فسقا ففسقا، وإن فجورا ففجورا. وعليه فاللبيب عند القوم الصوفية ـ رضي الله عنهم ـ هو من يحافظ على طهارة الضمائر كلها، لأنها رتب مشاعة، حتى إذا جلس في بعضها يوما جلس على مقعد طاهر يمكنه أن يؤدي فيه صلاته ولا عليه.

أما الذي يلطخ ضمير هو مثلا بقوله: ما أنا سرقت، ولا زنيت، إنما السارق أو الزاني هو الذي كان بالأمس هنا، فليلق تلك الجريمة أو المعصية بهو لغيابه عنه، وإذا حضر سمي أنت، وإذا غاب المتهم سمي هو أيضا، وعليه فيكون بتصرفه ذلك قد تهم نفسه بنفسه، ولا يمكنه السلامة من الوقوع

في التهمة، إلا إذا سالم جميع الضمائر، بحيث حتى إذا أراد أن يتحلى بضمير منها كان طاهرا نقيا.

وهذه السيرة الطيبة، كما أنها تنبغي لكل فرد أن ينتهجها، فكذلك ينبغي لكل مثنى، ولكل جمع، من ذكور وإناث، حتى تكون الضمائر بأنواعها صالحة لأن يتبوأوا أي مقعد منها شاؤوا، وبهذا الذوق الصوفي يمكن للإنسان أن يخفف من وطأة الغيبة والنميمة، وإذا خفت شعلة الغتبة والنميمة من بين الناس، خفت وطأة البغض والحسد التي هي منشأ لكل نفاق وشقاق، والعياذ بالله، وهكذا، والحق كلما نظرنا إلى لطيفة من لطائف الصوفية، أو بحث من أبحاثهم الدقيقة، إلا ونجده يرمي إلى غاية عالية ومقاصد غالية، ولمعالجتهم تلك بالحكمة والموعظة الحسنة سمتهم المتصفون بأطباء القلوب وعلماء الأخلاق، أدام الله لنا حياتهم، ولا أحرمنا من بركاتهم والإنتفاع بتذكيرهم آمين.



إنما الحضور شعور

سئل بعض العارفين عن الحضور مع الله في الصلاة، فأجاب ـ رضي الله عنه ـ بقوله: (إنما الحضور شعور) ثم ضرب مثلا في ذلك فقال: إن جماعة أدت فريضتها خلف إمام من ملوك الإسلام، وهو في قصره العامر، فمن المصلين من غلبت عليه أبهة الملك، فصلى في قصر الملك، ومن المصلين من غلبت عليه عظمة ملك الملوك، فصلى في حضرة الله، ومن الناس من غفل عن ذلك كله، فصلى في بيت من طين وحجر.

وبعبارة أخرى، قد يكون هناك من كانت صلاته لإمامه، وهناك من كانت صلاته لقبلته، وهناك من كانت صلاته لربه، والمعنى أن كلا قد أدى صلاته، لما تعلق قلبه به حالة الصلاة، وتعلق القلب بالشيء هو نفس الحضور معه، لأنه شعر به حالة صلاته، ولم يشعر بغيره. والحضور شعور ولا حضور معتبر إلا إذا كان مصحوبا بشعور بمعية الله، المحيطة بكل شيء (وكان الله بكل شيء محيطا).

أما المصلي الذي لا يتمكن من الحضور في صلاته، فمثله كمثل جنب دخل إلى البحر وسبح فيه ما شاء الله مع السابحين، ثم خرج منه، وهو بَاق على حكمه، والمعنى أنه لم يزل جنبا رغم سباحته، وغوصه في البحر المرة بعد المرة، وإذا نظرنا إلى علة بقائه جنبا، فلا سبب هناك إلا كونه غفل عن جنابته، ولم يعقد نية التطهر منها، فلم تغنه سباحته مع إلتباسه بغفلته، ولو أنه عقد النية بأن استحضرها حالة دخوله إلى البحر، وشعر أنه في البحر، لزالت عنه جنابته، ولخرج من البحر طاهرا من كل ما يمنعه من الوقوف بين يدي الله تعالى.

والتعبير هنا بالجنابة، يشير إلى أن كل مصلى، قد يكون أجنبيا من الصلاة، وقد يكون من أهلها المشار إليهم بقوله تعالى: (**إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون**) فهؤلاء - رضي الله عنهم - قد تخلقوا بالصلاة، حتى استطاعوا المداومة عليها، فكانوا أحق بها وأهلها.

أما من (**إذا مسه الخير منوعا، وإذا مسه الشر جزوعا**) فهذا أجنبي من الصلاة، وهو المعبر عنه

بالجنب، لبعده عن الصلاة، وإن قرب منها، والتبس بأفعالها، ثم هو لم يتمتع بأسرارها، وما ترمي إليه، فمثله كمثل السابح الذي يدخل البحر، فينال منه ما يشاء، إما من إقتناص وإما من إلتقاط بعض مواده الثمينة، وإما من تبرد. أما الطهارة فهو عار منها، لعدم عقد نيته بها، ولهذا جاء الحديث الشريف عنه - صلى الله عليه وسلم - : **(إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله والرسول، فهجرته إلى الله والرسول، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه)** صدق رسول الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.



من لم يكن على نفسه لا ينالها أبدا

كل فرد من بني الإنسان يعيش في بحر هذه الحياة الدنيوية، لشهوات نفسه ومطامعها الفتاكة القاتلة، وهيهات أن تعثر يوما على من يعاكس هوى نفسه، ويخالفها فيه، مع أن الإنسان لو تأمل ولو قليلا لوجد نفسه مخطئا خطأ فادحا، في مطاوعته لهواجس نفسه وهواه، إذا السعيد من يعمل على خلاف ذلك، ولكن (وما توفيقي إلا بالله) العلي العظيم.

ذكر الحكماء في بعض مواعظهم أن النفس سر دقيق يقوم بحياة الإنسان، ولا يمكن العدول عنه، إلا إذا تنورت النفس بأنواع القربات إلى الله، فإذا تطهرت واطمأنت رجعت إلى ربها راضية مرضية، فهناك يحسن من العبد الإعتماد عليها، والركون إليها، وأما إذا بقيت نفسا مظلمة ملطخة بذنوبها، فلا تكون مطاوعتها إلا سما قاتلا لصاحبها سواء شعر بذلك أو لم يشعر.

النفس عند الحكماء هي القوة الباطنية الأمارة

بالسوء، قال تعالى في محكم كتابه **(وما أبرىء نفسي ان النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم)**. وما وقع الاستثناء بالمرحومين من عباد الله، إلا لاطمئنان أنفسهم، والرجوع بها إلى الله، حيث يقول أيضا: **(يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي)**.

أما من لم يحصل على ذلك الإطمئنان، فهو بعيد عن الدخول في حزب عباد الله، بعيد عن الدخول إلى الجنة، ثم هو لا يمكنه التخلص من عوامل نفسه السيئة، إلا إذا عالجها بأنواع المخالفة، بالأعراض عن اقتراف شهواتها، وهذا لا يمكنه أيضا إلا بواسطة من يعينه عليه من أطباء القلوب، الذين أمدهم الله بنور من نور وجهه الكريم، قال تعالى: **(أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس)**، فهؤلاء الذين أحيهم الله، وجعل لهم نورا يمشون به في الناس، فلم يكن لهم ذلك إلا بعد التغلب على شهوات أنفسهم، وصحبتهم لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فهو مظهر الحق في الخلق، الوحيد

الذي كانت تستمد منه أهل التوحيد، ومن أنكره أو ينكره فلا حظ له من ذلك التنوير الإلهي، أو الحياة الربانية التي أشار إليها القرآن الكريم.

أما من رزقه الله التوفيق ونال منه حظه، فهو لا ينكر وجود ذلك المدد وسريانه في كل عصر وزمان، ومهما يتمكن هذا الظن الحسن من عبد من عباد الله، إلا وتشمله يد العناية ويكون مرعيا بعين الرحمة والإستمداد، أما من ينكر وجود المدد الإلهي في الوجود، فما ذلك إلا دليل على طمس بصيرته، واتباع شهوات نفسه، وهؤلاء قد تتعذر معالجتهم، وإن مع وجود الطبيب لكفرانهم به، ونكرانهم لخصاله الحميدة، ومن المعلوم أن المريض لا يمكنه العلاج من أي طبيب إلا إذا رضي به طبيبا له، ولا يمكنه أيضا أن يتعافى من علته إلا باستعمال دوائه، والنزول عند إشارته، ولكل مريض جمية فلابد منها من اتباعها، حتى يتم أجل مرضه، وفي هذه الأحوال كلها يكون الإنسان على نفسه لا لها، ومن لم يكن عليها، لا يكون لها أبدا، قال الشيخ البوصيري رحمه الله:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على
حب الرضاع وان تفطمه ينفطم

فتأمل رحمك الله إلى تشبيه هذا الرجل الصالح النفس بالطفل، لأن الطفل قد لا يدرك مضاره من منافعه، وإذا ترك بغير رعاية من أهله فلربما يسعى في هلاكه، أكثر مما يسعى في مصالحه، وعليه فإن مقتضى التربية يقضي عليه تارة بالنهر، وتارة بالضرب الخفيف، حتى يكف عن شهوات نفسه التي تؤدي به غالبا إلى إتلاف راحته، وإقلاق باله، إلى غير ذلك مما يؤلمه ويؤلم أهله، وهو لا يدري أن ما أصابه إنما أصابه لمطاوعة نفسه وهواه، من غير تبصر ولا رشاد، وعليه فالواجب على كل من يحس غلبة نفسه عليه، فَلْيَسْعَ في صحبة من يعينه على صرف هواها عنه، حتى يتمكن من معالجتها، تطبيقا لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : **(المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل)**. صدق رسول الله صلى عليه وسلم.



الطريقة رابطة وشعور



كثيرا من الناس من يتمسكون بالطريقة، ويعملون فيها أعمالا كثيرة صالحة طيبة، ولكن إذا سألته عن الطريقة، وجدته لا رابطة ولا شعور له بها، إنما هو يعمل لأغراضه وهواه، أو لجهله بمقتضاه، وهذا النوع من الناس لا يؤمن على نسبته لجهله بغايتها، ومراميها الشريفة، بحيث لو يسلط الله عليه من يشككه أو يفككه، لتشكك وتفكك، وينقلب على عقبه نادما على ما كان منه من العقيدة الحسنة في شيخه، ومن أعماله الجميلة التي كان يسديها إليه، وما أصابه ما أصابه إلا لعدم رابطته وشعوره بمزايا الطريقة.

كل منتسب حسنت عقيدته في سنده إلا وتراه شغوفا بمدح طريقته، الوفا لأورادها وأحزابها، ذاكرا لكراماتها، وخرق عوائدها، وهذا كله جميل وجميل ولكن إذا كان يصحبه شيء من التحقيق واليقين بمباديء الطريقة ومراميها العالية، وذلك كمثل من صحب شيخا واعتقد فيه الصلوحية

والكمال، ولكن هو لا يعرف صلوحية ولا كمالا، إنما هو يعتقدها في شيخه فقط، ويقول: إن شيخه فقيه ونحوي واصولي، ولكن هو لا يعرف من تلك الفنون ولا بابا، ولا فصلا من فصولها، فهذا المسكين لا يعتمد على تنويهه بشيخه، ولا بمدحه له، لأنه أجنبي من طريقته وشيخه، وإن كان هو ممن ينتسب إليه، وليس الشأن أن يكون العلم والأخلاق في الشيخ فقط، إنما أن يكون لكل منتسب نصيب مما للشيخ، إما من علم، وإما من أخلاق، وإما من تنوير، ومن لم يحصل على شيء من ذلك فهو ليس على شيء، ولا تغنى عنه نسبته شيئا، ولهذا قال بعضهم في إرشاده:

إن الفتـــى من يقول ها أنا ذا

ليس الفتى من يقول كان أبي

فإن الأب أو الشيخ هما بمنزلة واحدة بالنسبة للإبن أو التلميذ، فإن الإبن إذا كان أبوه صالحا، وكان على غير طريقته، فلا رابطة بينه وبين أبيه إلا من حيث النسبة إليه، وتلك النسبة إذا لم يصحبها شيء من الأتباع واليقين لا تغنى عنه من الله شيئا،

ويكون مثله كمثل ابن نوح عليه السلام حيث قال: « رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين. قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ».

هذا فيما بين الإبن وأبيه، وأما فيما بين التلميذ وشيخه، فلا يبعد أن يقع مثله إذا كان التلميذ في الطريقة على غير بينة، ولا يقين، فإذا فاض عليه التنور بماء الخلاف والإنكار على الطريقة تراه يتبرأ منها، ويقطع صلته معها، لأنه لا يعرف منها إلا ما هو كالخيالات أو الأماني الفارغة، فاذا اشتد به البحث في تحقيق حقيقة من حقائق الطريقة، وجد نفسه أجنبيا منها، ويقال له كما قيل لمثله: إنه عمل غير صالح، لأنه لا رابطة له ولا شعور، وكل منتسب لا رابطة له ولا شعور، فهو يعمل من وراء حجاب، تحت تأثير شهواته وهواه، ولا صلة له بأثر الطريقة وتعاليمها المفيدة، والطريقة الحية هي التي تبعث بصاحبها من مرقده، وتنشره من جدثه، لقوله تعالى: **(أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس)** فهذه الحياة المشار لها من هذه

الآية الكريمة، فهي التي تشترط في صحبة شيخ الطريقة، ومن لم يصحب شيخه على نية الوصول إلى هذه الغاية، فهو بعيد عن الطريقة، وإن كان متمسكا بها، منتسبا لأهلها.

والطريقة غاية شريفة، ومنقبة منيفة، ولكن ينالها من له رابطة بها وشعور بفوائدها، قال: «سيدي شعيب أبو مدين» دفين تلمسان - رضي الله عنه - في حكمه: (الشيخ من أدبك بإطراقه، وهذبك بأخلاقه، وأنار باطنك بإشراقه) ومن لم تكن فيه هذه الخصال العالية، فلا ينبغي صحبته إلا عند الإضطرار، كمن ينتقل مثلا من الطهارة المائية إلى الطهارة الترابية، إما لعلة المرض، وإما لعلة خوف اللص، وإما لعلة فقد الماء. أما من سلم من هذه الموانع كلها فلا وجه له في التماس رخصة التيمم، (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتذكرون) (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور).



الـذكـر أفـضـل الأعـمـال

مما اتفقت عليه أيمة الدين، ولم يخالفهم فيه أي إمام تحققّت إمامته؛ أن أفضل الأعمال «ذكر اللّه» وأن أقرب وسيلة إلى اللّه، «ذكر اللّه» وأن أعظم جاه عند اللّه في غفران الذنوب «ذكر اللّه» وعلى هذه القاعدة الثابتة بنت الصوفية مشاريعها الخيرية الطيبة، وما من إمام من أيمة الطريقة إلا ومحوره يدور حول «ذكر اللّه» ؛ فإذا بويع فلله، وإذا تحدث فباللّه، وإذا نصح فنصيحته للّه ولرسوله ولعامة المسلمين وخاصتهم. هذا هو شأنهم - رضي الله عنهم - ولا عبرة بمن جاء **(من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات)**.

قال صلى اللّه عليه وسلم في الحديث القدسي؛ في فضل الذكر وشرف الذاكرين: **(أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منه)** أخرجه الشيخان في صحيحيهما، وأخرج البخاري تعليقا، من حديث أبي هريرة قال: قال

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . إن الله يقول: (أنا مع عبدي إذا ذكرني، وتحركت بي شفتاه).

فتأمل رحمك الله (وتحركت بي شفتاه) فإنه قد اعتبر تحرك الشفتين، حتى نبه إليهما ترغيبا وإشعارا للذاكر أنه مهما تحرك منه جزء بذكر الله، كان أدعى للقبول، ويُحَلِّي أنوار الرضوان، لأن الحديث ـ كما رأيت ـ أن الله يعامل العبد بما يعامل به العبد مولاه، فإن ذكره في نفسه فقط، ذكره الله في نفسه، وإن ذكره في ملأ، ذكره الله في ملأ خير منه، وإن ظن به خيرا، كان الله عند ظن عبده به، وهذه رحمة واسعة، ونعمة شاملة، لا يحجب عن بركاتها واغتنامها إلا شقي محروم، فلتحافظ أيها المؤمن على إيمانك، ولتسع إلى تقويته بأنواع ذكر الله، فإنه من أفضل الأعمال المحبوبة عند الله. قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حديثه الشريف: (ألا أخبركم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة، وخير لكم من أن تلقوا العدو فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: ذكر الله).

أفضل الذكر لا إله إلا الله



لا مشاحة أنه عند كافة المسلمين لا يفضل أحدهم ذكرا على ذكر «لا إله إلا الله» لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف: (**أفضل ما قلته أنا والنبيئون من قبلي لا إله إلا الله**) والأذكار بجميع أنواعها فهي مفيدة ونافعة، ولا فرق بينها من جهة اتصالها بالحضرة الإلهية لقوله تعالى: (**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها**) إلا أن أفضلها ذكرا وأكملها أجرا «لا إله إلا الله».

والفرق الذي يلاحظ تقريبا فيما بين أنواع الأذكار و «لا إله إلا الله» مثله كمثل الأدوية المعدة للعلاج، فكل دواء قد أقامه الله لعلاج دائه، إلا أن جميع تلك الأدوية قد يفضلها العسل حيث صرحت الآية بأفضليته حيث قالت (**يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس**) فشهد الله له بالشفاء صراحة في محكم كتابه. فتفضل العسل على بقية الأدوية كما تفضلت «لا إله إلا الله» بنص الحديث، في شفاء القلوب وطهارتها من الحقد

والحسد، والكبر والرياء والنفاق مثلا، إلى غير ذلك من الأوصاف الذميمة التي ما اتصف بها عبد إلا أتلفت إيمانه كما تتلف الرياح بقية الرماد بعد الحريق.

وأما كون «لا إله إلا الله» علاجا للقلوب، فيستفاد من قوله صلى الله عليه وسلم: (**لكل شيء جلاء، وجلاء القلوب ذكر الله**) ويروي أيضا: (**إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، وجلاؤها ذكر الله**) فتبين بهذا أن «لا إله إلا الله» هي أفضل وجوه الذكر من جهة تاثيرها في تطهير القلوب وعلاجها مما ذكرناه من الأوصاف الذميمة.

وأما كونها هي أكمل وجوه الذكر؛ لأنها مركبة من جحود وإقرار، أي من « لا إله ـ إلا الله» فكانت بهذا التركيب الشامل للجحود والإقرار أكمل وجوه الذكر. قال مولانا الأستاذ الشيخ العلاوي ـ رضي الله عنه ـ في كتابه (المنح القدوسية).

ثم اعلم، إن «لا إله إلا الله» يندرج تحت لفظها الوجود باسره، أي الوجود الكلي والوجود الجزءي، أو تقول: الوجود الحقي والوجود المجازي. أو تقول:

وجود الحق ووجود الخلق، فيدخل وجود الخلق تحت «لا إله» والمعنى أن كل ما خلا الله باطل، أي منفي لا إثبات له، ويدخل وجود الحق تحت قولنا «إلا الله»، فكل المساويء تدخل تحت الشق الأول، كما أن المحامد تدخل تحت الشق الآخير، **(وهو الأول والآخر)** وإذا فهمت هذا تعرف حقيقة الجمال والجلال، والجامع بين ذلك هو الكمال. إنتهى ما سطره ـ رضي الله عنه ـ في هذا الموضوع الجليل.

ومن يتأمل هذا النقل بإمعان وإنصاف يدرك حقيقة أن «لا إله إلا الله» قد أحاطت بأنواع القربات الخفية والجلية، لأن الله سبحانه وتعالى مذكور على لسان كل موجود؛ من إنسان، وحيوان، ونبات، وجماد.

قال تعالى في محكم كتابه: **(وإن من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم)** فهي صريحة من كون هناك من التسبيح ما هو مجهول عندنا، وإن رأيناه أو سمعناه، ومن جهلنا به ما ربما نحمله على غير محمله، كمن يسمع مثلا قولنا «آه» فيظنها أنها مجرد تأوه، وفي الحقيقة هي ذكر، وقد مدح

الله به إبراهيم عليه السلام حيث قال: **(إن إبراهيم لأواه حليم)**.

ذكر «الرافعي» في تاريخ ((قزوين)) عن عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ بإسناد حسن قالت: **(دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعندنا عليل يئن فقلنا له: اسكت. فقال رسول الله: دعوه يئن، فإن الأنين اسم من أسماء الله يستريح إليه العليل)** وهذا إسم من أسماء الله قد كان مجهولا حتى عند الصحابة، ثم أصبح معروفا بفضل رسول الله صلى الله عليه وسلم.



التعريف بالتصوف

ذهب الناس في التعريف بالتصوف مذاهب شتى، ونحن لا نريد بهذه النشرة التعريف بالتصوف على الطريقة التي سلكها فيه بعض الكتاب، إنما نريد التعريف به على طريقة ما قيل فيه من حيث إحساسات أهله، وأذواقهم - رضي الله عنهم - أجمعين، قال بعضهم:

(التصوف هو أن يفنيك الحق عنك ويبقيك به)، وقال غيره: (التصوف هو زهد وورع) وقيل (سحق ومحق) وقيل (أخلاق وأذواق) وقيل: (معارف ومخاوف) وقيل (أشواق وأذواق) وقيل (تذلل وانكسار) وقيل (إنصاف وإعتراف) وقيل (صفاء ووفاء) وقيل (تصديق وتحقيق) وقيل: (غيبة وحضور) وقيل (حشر ونشر) وقيل (حساب وانقلاب) وقيل (تلاش وخراب) وقيل (فكرة واعتبار) وقيل (تحل وتخل) وقيل (تقارب وتباعد) وقيل (إيمان وإحسان) وقيل (شهود وعيان) وقيل (تربية واقلاع) وقيل (تنزيه وتشبيه) وقيل (عمل

وإخلاص) وقيل (حلم وسخاء) وقيل (صبر ورضاء) وقيل (صحو ومحو) وقيل (حمل الأذى وكف الأذى) وقيل (زبدة الدين وحقيقته) وقيل (حقيقة الحق إذا ذكرت الحقائق) وقيل (فضل الله الذي يخص به من يشاء من عباده) وقيل (كلمة الله التي لا نفاد لها).

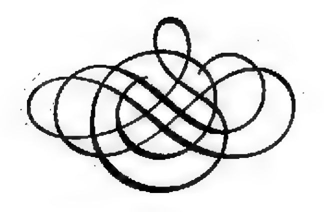
هذا ما أجاب به إخواننا بعد مذاكرة في الموضوع، وهؤلاء وان أجابوا بما يستحسن نشره، ويجمل ذكره، فإنه لم يف بنهاية التعريف بالتصوف، لأنه الفن الذي تستغرق فيه جميع الكمالات البشرية، وكمال البشرية يتصل في نهايته بالكمالات الروحية، وإذا بلغ المتصف إلى تلك الغاية عجز عن التعبير، ويقول كما قال الكتاب الكريم: (يسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ويظهر من عبارة الآية أن العلم منفي عن السائلين لا عن المسؤول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وما نهى عن الكلام في الروح، إلا لخطورة الموضوع وعدم إستعداد السائلين للمباحثة، لأن الروح برزخ بين الحق والخلق، ولا يكاد يدرك موقف هذا البرزخ، إلا من كان له نصيب من العلم بتجليات الحق، وتطورات

الخلق، ومن لم يكن كذلك فهو بعيد عن أن يتكلم في شيء مما ذكر، قال تعالى: (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان) فالملاقة بين بحر الشريعة والحقيقة يلتقيان في برزخ الروح، ولكن لا يبغي أحدهما على الآخر، لأن الروح حياة، ومهما كان العارف بالله حيا بتلك الحياة الروحية فهو برزخ في مركز يتمتع بنعمة البحرين، ولا يبغي فيه أحدهما على الآخر.

ف (هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج)

أما من لم يعش بتلك الروح العظيمة المعبر عنها بالبرزخ، فهو مختلط المياه يغلب أجاجه على عذب فراته، فيتحطم نباته ويحترق غرسه، ويصبح في معيشة ضنكا لعدم صلاحية مياهه لسقي منتجاته، وهو كجاهل بفن الطب يظن أن كل دواء صالح للعلاج، ولم يدر أن فيه ما يعود بالهلاك على صاحبه حتى يلقى فيه حتفه، وأمثال هؤلاء الأغبياء المغرضين لم يخل منهم عصر ولا مصر، ولا ينجو من الوقوع في حبائلهم، إلا من عصم ربي من عباده المؤمنين، وهؤلاء قد يشح بهم الزمان حتى يظن من

لا علم له بحكمة الله من خلقه، أنهم لا وجود لهم إلا في دفاتر التاريخ، وهو خطأ، والصواب وجودهم في كل عصر، لأنهم (على قلب خليل الرحمان، فبهم تسقون، وبهم ترزقون).



التصوف والفلسفة

ها أنذا قد عزمت على تحرير جمل في موضوع التصوف والفلسفة، وأنا ممتلىء القلب شعورا بأن الموضوع يحتاج ولا ريب إلى استعداد كبير كامل، سواء في غوامض التصوف، أو في أعصاب الفلسفة، ولهذا يسوغ لي أن أقول إن البعض من كتاب عصرنا ممن ينتسبون إلى التصوف أو إلى الفلسفة، عالجوا هذا الموضوع بتدقيق وتحقيق، ولكن رغم حذاقتهم وشطارتهم وبراعتهم، قد اشتبه على أغلبهم الحبل بالنبل، وضاعت تلك التقارير من حيث لا يشعرون، حيث قد انتهت بهم أبحاثهم الطويلة إلى أن التصوف هو الفلسفة، والفلسفة هي التصوف، ولا فرق بينهما عندهم، إلا من حيث التعبير والتصوير، وعليه فإذا كان الفن مقررا عند الأجانب قيل فيه (فلسفة) وإذا كان مقررا عند المسلمين قيل فيه (تصوف) ولكن إذا أنصفنا الفن، وجدنا الأمر بخلاف ذلك، وإذا وجدت أيضا من ينصفني من كتاب عصرنا، ولو كنت لست ممن يجاريهم في جميع

أفكارهم الخطيرة، لقلت لهم على رسلكم أيها المحترمون.

أقول وبه استعين: إن الفلسفة هي فن جميل، وليست ممن تنكر مزياه العديدة التي رجعت منافعها على الكثير من الأمم الراقية، وخصوصا على بعض الأفراد منهم، الذين توغلوا في تحقيق حقيقتها، حتى بعثت بهم إلى الأذعان بوحدانية الله، وبالإقرار بنبوءة المتنبئين الربانيين، وحتى آمنوا أيضا بغوامض أفكار بعض الموحدين من أهل الله، ومن المعلوم أن علما يهدي بطبيعته إلى مثل هذه الأصول الثابتة لعلم جليل وجميل.

وأما أول من نطق به على وجه الاجمال فهم أكابر الأمة اليونانية «**أرسطوا طاليس**» و «**أفلاطون**» ومن على شاكلتهما من أقطاب الفن في زمانهم، ثم جاءت البعثة المسيحية من بعدهم، وكانت البعثة اليهودية من قبلهم، فتشاكل وتشابه الأمر على الكثير من الناس، وحتى على البعض من خاصتهم، حتى غلب على ظنهم أن النبوءة قد جاءت بالفلسفة، أو أن الفلاسفة قد جاؤوا بالنبوءة، وهما غزل رقيق لم

يوجد له نساج في أي عصر من العصور، إلا ما شاء الله، (**والله يخلق ما يشاء ويختار**).

بدأت هذه الفلسفة تلوح بوارقها كما ذكرنا على وجوه الأكابر من الفلاسفة اليونانيين، وفاضت على ألسنتهم، وزادوا وأضافوا إليها شيئا من التقشف والزهد، والإنقطاع عن الخوض في معترك الحياة البشرية، فبات الفيلسوف بصفته تلك، أشبه شيء بالنبوءة الربانية المعهودة في العصور الغابرة، ثم بعد هؤلاء أخذت تلك الفلسفة تتجرد عن كل ملحقاتها، من عفاف وأخلاق كريمة، إلى أن أصبحت أشبه شيء بالورد المصطنع، يعجبك لونه إذا رأيته، وإذا قربت منه أدركت حقيقته أنه لا شيء، إلا شيئا يشبه الورد في لونه، ولا يقوم بأي خصلة من خصاله، وهذه الفلسفة التي يشبهها الورد المصطنع، فرغم ضآلة نورها فلا زالت تعد عند من لا علم له بالفن، أنها بقية من بقية النبوءة، وهذا الغلط الفادح، هو الذي دعانا إلى تحرير هذه الكلمة.

ثم أقول: إن التصوف هو فن من أجمل الفنون الروحانية، وله قوة معنوية، تبعث بصاحبها على

الطهارة والعفاف، ومعاملة الناس بالخلق الحسن، وانه مهما اتصف بها أحد، إلا ووجدته حيا، سواء من جهة قلبه، أو من جهة أفكاره، وأنك لتحس الحياة منه من حيث إحساسك لها من نفسك، مهما اتصلت به، وهذا التأثير المعنوي هو المعبر عنه بالحال، وهو المقرون بما نسميه بالتصوف، وهي الصفة التي يمتاز بها التصوف عن الفلسفة، وأن صاحبه لا يخلوا من حلاوة في منطقه، ومن قبول على أفكاره.

أما التصوف فقد عرفه الكتاب بشتى العبارات، وحددوه بحدود كثيرة، كلها مستحسنة وإن هي تتفاوت في حسنها ومكانتها من أذواق الناس، قال بعضهم في الموضوع:

عبارتنا شتى وحسنك واحد

وكل إلى ذاك الجمال يشيـــر

نعم: تعددت آراء وتفاسير الصوفية، في تأويل اسم التصوف، ولكن لا تخرج كلها غالبا عن محور التخلق بأخلاق النبوءة، والتشوف إلى إدراك معالمها العالية الغالية، كقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث

القدسي: (ما تقرب إلي عبدي بمثل ما افترضته عليه، ولا زال يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها).

وهكذا تجد النبوءة ترهب أحيانا الخلق من الحق، واحيانا ترغبهم في القرب منه، حتى يكون العبد قريبا من ربه، قربه من حبل وريده منه، أو أدنى من ذلك، قال تعالى: (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد)، وهذه الغاية اللطيفة العزيزة المنال، هي التي يرمي إليها التصوف، وهي التي يتشوف إليها كل من أراد الله به خيرا، وألهمه إلى ذكره وشكره، وهي الغاية التي يكون معها المؤمن في اطمئنان تام بربه ودينه، بحيث لا يحتاج معها إلى كثرة الأقوال، وإلا إلى تنوع الأعمال، إلا ما مست به الحاجة، لاستغنائه بربه عما سواه (واتقوا الله ويعلمكم الله).

أما المتجافي عن هذه المرتبة، المكتفي بما بين يديه من ألفاظ محفوظة، وأقوال ملفوظة، فهو المغرور بنفسه، المشغول بحسه عن محاسن أنسه بربه، وكان

(مثله ـ كمثل الذي أستوقد نارا فلما أضاءت ما حوله، ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون) وهؤلاء هم المنكرون لمذهب التصوف ولمبادئه اللبيقة الطيبة وكان مثلهم كصاحب الرمد والسقم الذي أشير إليه بقول بعضهم:

وتنكر العين ضوء الشمس من رمد
ويتنكر الفم طعم الماء من سقم



مداعبة بين العقل والروح

العقل: ـ أيتها الأخت الكريمة؛ هل تأذنين لي بالدخول إلى قصرك اللطيف وحصنك المنيف، عساني أحضى ببرق من بروق أنوارك الشارقة على جوارح البدن، فيكون بها سميعا بصيرا حيا يرزق بأنواع النعم؟

الروح: ـ فأهلا بك ومرحبا أيها الأخ الشقيق والخل الشفيق، فإني ـ وتالله ـ ما رأيت يوما أسعد عندي من زيارتك فيه، وحبذا لو يجمع الدهر بيننا حتى يتوحد منزلنا ويلتئم شملنا، وما أنا وأنت إلا شقيقان متلازمان، لمصلحة واحدة، وإن اختلفت وضائفنا، وتنازعت مشاربنا، فهل يمكنك إذن أن تنزل عندنا ضيفا محترما لوجه الله غير هياب ولا وجل؟

العقل: ـ نعم، نعم، ولبيك لبيك، فما الذي يمنعني وانا الضعيف المحتاج إلى اقل القليل من معرفة الأسرار والأنوار التي لا سبيل لي إليها، إلا من طريقك المنير، وإني ـ وأيم الله ـ لمشتاق إلى التطلع

إلى حقيقة الحق الذي خلقني وأعزني، وجعلني في أحب الخلق إليه، فهل بعد هذا يجمل بي أن أكون من الغافلين، أو من المحجوبين عنه، وهو الذي عمنا فضله وغمرنا نواله!

الروح: ـ إني أراك تتلطف كثيرا، وتسأل عن عظيم، وإن كان لا عظيم في جانب فضله، خصوصا وان (الله يجتبي إليه من يشاء، ويهدي إليه من ينيب).

أما الوصول إليه، فإنه لا يمكننا إلا إذا تجردنا عن الوقوف عند إدراكاتنا، لأنني أرى إدراكاتك إنما هي موقوفة على حكم السمع والبصر، والشم والذوق واللمس، وهلم جرا... وهذه الحواس وما في معناها، لا يحسن الإكتفاء بحكمها مادامت تصيب تارة، وتخطئ أخرى، وذلك ان الذوق ـ مثلا ـ قد يحكم بمرارة الفاكهة وهي حلوة، وقد يحكم البصر أيضا بغياب الشمس وهي لا تغيب. إنما هي تغيب عن أبصارنا، ولا تغيب في نفسها، ولهذا قال تعالى: (وجدها تغرب في عين حمئة، ووجد عندها قوما) والعين الحمئة، هو نفس عين الإنسان الضعيف.

مداعبة بين العقل والروح
تابع



ذكرنا في العدد السادس عشر من هذه المجلة، كلمة تحت عنوان ((مداعبة بين العقل والروح)) وهي كلمة في صورة محاورة بين العقل والروح، والغرض منها استنهاض الجاهل، وتنبيه الغافل إلى الغاية المنشودة من معرفة الله، لأن العبد وإن بلغ من العلم ما بلغ، فلا يزال مفتقرا إلى معرفة الله، معرفة تنبع له من قلبه، يكتفي بها في نفسه، وتقنعه عن مطالعة كتب غيرة، وهي المعبر عنها بعلم حق اليقين.

يروى في بعض الآثار: (أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سأل الإمام عليا ـ كرم الله وجهه ـ ورضي عنه، بقوله: كيف أصبحت يا علي؟ قال: أصبحت مؤمنا يارسول الله؟ فقال: وما الدليل على إيمانك؟ قال: لو كشف عني الغطاء ما ازددت يقينا). وهذه الغاية لا يصل إليها إلا من يتشوف إليها، ولا

يتشوف إليها، إلا من اعترف بقصوره عن معرفة التوحيد، وكثير من الناس من يصر على عقيدة ليست بمقنعة، ولكن يحمله على البقاء عليها كبره عن الناس، أو سوء ظنه بأهل زمانه من المرشدين، فيبقى معلقا ـ كأنما يصعد في السماء ـ وهذا ضرب من الحرمان والعياذ بالله؛ ولهذا قيل (المعاصرة حرمان).

أما الذي قذف الله في روعه نوعا من الإنصاف، فلا يحتجب بغزارة علمه؛ ولا بشرف نسبه، ولا بأبهة حسبه، بل يكون هينا لينا، يلتقط الحكمة حيث وجدها، لأن الحكمة ضالة المؤمن، والمؤمن لا يستحي ولا يتكبر في طلب ضالته المنشودة؛ ولا حكمة أعز من طلب حكمة الله؛ قال تعالى في محكم كتابه: (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا).

نعم يؤتى خيرا كثيرا، لأن معرفة الله أساس كل فضيلة وتهذيب وتأذيب. قال صلى الله عليه وسلم: (أدبني ربي فأحسن تأديبي، ثم أمرني بمكارم الأخلاق). ومن لم يكن على هديه في معرفة الله، فقد ضاع حظه منها، لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإن

جاء معلما لنا في كل شيء، ومشرعا لكل حكم، فلم يكن ذلك منه إلا توطئة لتمكين توحيد الله من قلوبنا، لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : **(أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله. فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)** فتبين من هذا الحديث الشريف أنه قد بعث خصيصا لتمكين التوحيد من قلوب الناس.

أما من يكتفي بمجرد القول به، فإسلامه مقبول حكما، ولكن لا يعتمد عليه إذا جد الجد، قال تعالى في محكم كتابه: **(قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا، ولكن قولوا أسلمنا)** وهو صريح من أن الإسلام شيء والإيمان شيء، وإذا سلمت هذا فلك أن تقول: والإحسان شيء، لأن الدين مرتكز على أركانه الثلاث: الإسلام؛ والإيمان؛ والإحسان؛ وكلما قصر الإنسان عن إدراك ركن من هذه الأركان، كان ذلك نقصا بينا في دينه، ومن أراد أن يكون دينه مرتكزا على الأركان الثلاثة، فلابد له من سلوكها؛ ولا يمكنه سلوكها إلا بالإعتناء بها، والتذلل على أعتاب أهلها.
وعلى الله قصد السبيل.

مناجاة الأشياء عند العارفين

يروى أن بعض العارفين من أهل الإهتداء أنه كان في وليمة، إذ رنَّ عود ومزمار، فطرب لنغمتيهما، فلاحظ عليه بعض الحاضرين طربه ذلك، وتأثيره من غناء وترنم، لا يطرب لهما غالبا إلا بسيط الحال من عامة الناس، وقال له في صراحة والناس يسمعون: << ما مثلك يا شيخ من يطرب لغناء السفهاء وترنمهم بالأشعار الهزلية، وأنت رجل تنتسب إلى العلم والنسك والورع >>.

فقال الصوفي ـ رضي الله عنه ـ : نصحتني ولك الفضل، ولكن يا أخي أنا ما طربت لشيء مما ذكرت أوظننت، ولكن طربت لنداء خفي من وراء العود والناي، فقال الملاحظ: وكيف ذلك يا سبحان الله! أمن العود والناي تسمع الخطاب؟ فقال الصوفي: نعم. بل ومن كل شيء يسمع الخطاب (**لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**).

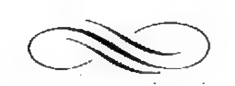
رن العود يا أخي، وجال به صاحبه جولته، فقال لي بلسان حاله: يا من عرفتني، فقد عرفتني ويا من لم تعرفني

فأنا الوتر على العود، وقد كنت قبل اليوم في جوف شاة مستقذرا بما في جوفي، راضيا لما خلقت له، وأن، مع إلتواءي واعوجاجي شاكرا لصانعي صنعه، إلى أن أماتني عني، وأحياني به، فتطهرت مما كنت ملوثا به، واستقمت من بعد اعوجاجي، فأصبحت ممدودا مستقيما على جوف هذا العود، وأصبحت صالحا لذلك النداء، وذلك التأثير، وإنه لا يعرفني إلا ذووا الأسرار الدقيقة، وأهل الأفكار الرقيقة، فإذا سمعوا صوتي تذكروا به حالة الفناء، وجالوا به في عالم ملكوت السموات والأرض، ومن لم يتطهر من رعونة نفسه، واعوجاج سيره، فهو بعيد عن النطق بلسان الحال لأهل الكمال، والعبد من حيث هو لا ينطق إلا بما فيه، وإذا خرج عن قاعدته الذاتية كذبته شواهد الإمتحان.

هذا ما سمعت من نداء الوتر، أما الناي أو المزمار كما يقولون، فقد كان حديثه شبيها بحديث زميله، قال بعد سكوت طويل: كنت قبل اليوم نباتا رطبا، أميل مع الهواء حيث يميلني، وإن كان الميل قد يورثني الإعوجاج، أو يبعث بي إلى الإقتلاع، ثم إلى

النار؛ ولكن لما بلغت أشدي، ألهم الله من اجتباني إليه، فأقتلعني وجردني، ثم هذبني، ثم أجلسني من بين يديه، وجعل لي لسانا ناطقا أحدث به أهل الفن من رجال الأذواق والأشواق، وأنا وإن كنت متفننا فلا أتحدث إلا بلسان صاحبي، ولا أغرد إلا بقوة نفخه، فإذا نفخ في من روحه، كنت مغردا منعشا للقلوب والأرواح، ولولا انقطاعي عن أهلي، وتجردي عن جميع توابعي، لما كنت أهلا لمجالسة العشاق، مشيرا لمعالم الأذواق، وعليه؛ فمن أراد أن يدرك للفن معنى، فما عليه إلا أن يقتدي بالسائرين، ويتبع سنن المهتدين؛ أما من لم يرض بالإنقطاع والتجريد، فلا زال بعيدا عن حضرة التوحيد. قال سيدي عمر بن الفارض ـ رضي الله تعالى عنه ـ في هذا المقام:

تراه إن غاب عني كل جارحة
في كل معنى لطيف رائق بهيج
في نغمة العود والناي الرخيم إذا
تألف بين ألحان من الهزج



الحب الدفين في قلوب العارفين

تجلت الحضرة الإلهية على قلوب العارفين حتى عمت جميع المظاهر الخلقية، كشروق الشمس على الكائنات، فمهما وقع بصر البصير إلا ويقع على الشمس، قبل وقوعه على المتجلي عليه، ولكن لما كان ظهوره مقرونا بظهور الشمس فهو يرى الشيء ولا يرى نور الشمس الذي ظهر به ذلك الشيء، وهو مجرد غفلة، لأن الرائي لولا ظهور الشمس لما رأى الشيء ولكان في ظلمة (**بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها**). والمعنى ـ والله أعلم ـ أنه لا ترى نفسه نفسها لاشتداد الظلمة في الليلة الحالكة الدهماء، تلك هي حالة العبد في غفلته عن ربه، (**وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون**).

قال تعالى في محكم كتابه: (**الله نور السموات والأرض**) فيتضح من هذه الآية الكريمة أن نور الله سبحانه وتعالى متجل على خلقه كتجلي الشمس في رابعة النهار، ولكن الأمر كما ذكرنا، فمن الناس من

يقع بصره على نور الشمس قبل وقوعه على المظهر الحسي، ومن الناس من يقع بصره على المظهر الحسي قبل وقوعه على نور الشمس، وهي هفوة منه، لأنه لو تدبر قليلا لعلم علم اليقين أنه ما وقع بصره على المظهر الحسي إلا بفضل ظهور الشمس، ولولا ظهور الشمس لما رأى شيئا من مظاهر الحس ولدام - كما ذكرنا - في غيبوبة العماء لا يبصر شيئا **(فمن ابصر فلنفسه ومن عمي فعليها، وما أنا عليكم بحفيظ)**.

وجريا على ما ذكرناه من أن العارف بالله صاحب الحب الدفين الذي يقع بصره على نور الشمس، قبل وقوعه على المظهر الحسي فهو مجذوب بقوة نور الشمس، فلا يقع بصره إلا عليه قبل وقوعه على أي شيء كان، وكيف ما كان، ومن هذه الحيثية يتسرب الحب الدفين في قلوب العارفين.

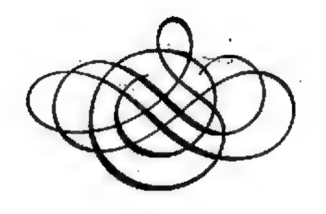
فالعارف مثلا قد يحب النساء والطيب وغيرها، ولكن حبه مزيج لا مجرد، كحب غيره، فالغير يحب الشيء لذاته مجردا عن كل علاقة وغاية والعارف يحب الشيء ولكن حبا مزيجا لعلاقة وغاية، ولتلك

العلاقة والغاية قال صلى الله عليه وسلم: (حبب إلي من دنياكم ثلاثة: الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة) وقال: (حبب إليّ) ببناء الفعل للمجهول، اشعارا لسامعه من أن هناك علاقة وغاية دعته إلى حبهما، فهو - صلى الله عليه وسلم - قرير العين بصلاته سواء في حبه النساء أو الطيب، أو غيرهما من الأشياءالمحسوسة، سواء في اليقضة أو المنام أو الإلهام؛ وهذه الغاية هي المعبر عنها: بالحب الدفين، وقد تضيق العبارة بصاحبها عند ما يريد الإفصاح عنه.

ثم هو ما من أحد من العارفين بالله يرشح بشيء منه إلا وقذفته ألسِنَة المعاصرين بالفسق والضلال ظنا منهم أن العارف مخطىء في ذوقه ونظريته، مع أن الواقع يشهد له أنه مصيب، ولكن قاصر النظر لا يتوصل إلى غايته الشريفة.

ومثل الحالة التي يختلف فيها العارف مع غيره من معاصريه، كمثل خمر خلل، فمن بقي بعيدا عنه ولم يتذوقه فلا زال يحكم عليه بالحرمة ويشنع على شاربه بالفتور والإلحاد، أما من اقترب من بائعه

وشرب منه، رضي بحليته ولا يرى آية مخالفة للشرع الشريف في شربه؛ ثم هو لا عليه إن رضي الناس به أو انكروه عليه أن يقول بصراحة في حديثه: نعم الإدام الخل. وفوق ذلك فهو دواء نافع لعدة أمراض وأوجاع.



الحب الدفين في قلوب العارفين
تابع

ذكرنا في العدد الفارط تحت هذا العنوان كلمةً اعربنا فيها عن معنى قوله تعالى: (الله نور السموات والأرض) وذكرنا بمناسبتها أن النور الإلهي المتجلي في كل شيء، هو الذي وحده جعل العارف بالله يحب كل شيء، ويلتقط ضالته المنشودة من كل شيء، وحتى من الأشياء التافهة، أو المحتقرة عند الكثير من الناس.

قال: بعضهم في بعض حكمه: (من نظر الأشياء بعين التعظيم استمد منها وكان عند الله عظيما، ومن نظرها بعين الإحتقار استمدت منه وكان عند الله حقيرا) وبعبارة أخرى فإن الخلق في نظر العارف بالله كالحروف الهجائية، فمنها ما هو مستقيم، ومنها ما هو مائل، ومنها ما هو معوج، ولكن جميعها يحتاج إليه في حالة الكتابة، وربما قد تتوقف الكلمة على ذلك الحرف المعوج كالجيم مثلا؛ ولا تتم بنيتها إلا به، وقد يكون اعوجاجه فيها هو عين الإستقامة. لأن الكلمة لا يتم معناها ولا يصح

مبناها إلا بوجوده فيها، وبوجوده فيها تتم استقامتها ويكمل حسنها، فيكون بمثل هذه المثابة هو عين الحسن والإستقامة مع ما اشتمل عليه من البشع والإعوجاج في نظر من لا يرتضيه؛ قال بعضهم ـ رضي الله عنه ـ :

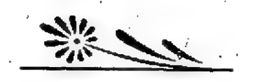
لك البشارة فاخلع ما عليك فقد
ذكرت ثم، على ما فيك من عوج

وتوضيحا لهذا الموضوع نقول: إن الشين حرف من الحروف الهجائية الثقيلة رسما واسما، ولكن إذا أردنا رسم كلمة شرف فلا يتم لنا الشرف ولا الشراب إلا بوجودها، كأسس لهاتين الكلمتين المعتبرتين هما الشرف والشراب. ومن لاحظ هاته الحكمة في حروف الهجاء كانت عنده كلها صالحة، وكل واحد منها مستقيم في بابه، وجميل في صورته وقاعدة في بنيته، وإذا كانت في نظره كلها كما ذكرنا فهو يحبها ويقدرها حق قدرها، ويراها مدادا قبل أن يراها حرفا، وقبل أن يراها كونها ألفا أو لاما أو ياء.

وهنا نقول: إنه لا مشاحة إذا كان الكاتب ينظر

إلى حروفه بتلك النظرة الجميلة الواسعة، فلا جناح على العارف أن ينظر إلى خلق الله بتلك النظرة، أو بما هو أمكن منها لعلوّ مكانتها عند الله. قال بعضهم: «« ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله قبله »» وقال الآخر: «« ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله بعده»» وقال الآخر: «« ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله فيه) وقال الآخر: «« ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله وحده»». هاته المراتب الأربعة هي المشار إليها بقوله تعالى: (هو الأول والآخر والظاهر والباطن).

وإلى هنا نلمح إلى الحب الدفين في قلوب العارفين؛ أولئك الذين كان أنسهم بالله لا بما سواه، قال تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم عليه السلام: (فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين).



من جهل شيئا عاداه

بلغتني رسالتكم أيها الأخ الكريم، وإني قد قرأتها على أتم تشوف إليها، وفي الختام حمدت الله على عافيتكم وسلامة عقيدتكم مما ابتلى به الكثير من خلقه، وهو الإنتقاد على الأولياء والصالحين من عباد الله، وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : **(غابتان مسمومتان لا يسلم من طعنهما: أهل بيتي، وأولياء أمتي)**. والإنكار على السادة الصوفية داء دفين من قديم الزمن، خصوصا في طلبة العلم، ولكن كيفما تصورناه فلم يبلغ مبلغه اليوم، والسبب في ذلك هو ضعف الإيمان الذي تغلب على سواد الأمة، لأن التصوف في الحقيقة ما هو إلا زبدة الدين، الذي نحن به مسلمون، وهيهات أن ينكر المسلم زبدة دينه، ولكن كما قيل ((من جهل شيئا عاداه)).

ذكرت أيها الأخ الكريم، أن أحد المذيعين بالإذاعة الجزائرية، قد أجاب بصراحة عن كثير مما يفعله الصوفية أنه باطل ولا أصل له في الدين، وهذا المسكين لو تأملت أحواله وأفعاله ومعلوماته لعذرته،

ولعلمت أنه رجل متمعش قد يفتي بخطأ الصوفية أو بتصويب مذهبهم على حد سواء، والمعنى أنه يعمل لغيره لا لنفسه، وعمله لنفسه هو اكتسابه لرزقه كيفما تنوع ذلك الإكتساب، ورجل هذه غايته، فالأولى لمثلك ومثلي آن يجعله في حل من إرشاده إلى جادة الصواب، لأننا على فرض لو أرشدناه واسترشد فلا يمكنه أبدا أن يكون منا أو إلينا، أولا: فلما هو عليه من الأخلاق العادية. وثانيا: فإن ركونه إلى الدين، والطهارة مناقض لما هو فيه من مراقبة الخلق، والغفلة عن مراقبة الحق، وقلوب قد تغلبت عليها الغفلة، فإن الهوى ما تولى يصمي أو يصم.

أما التصوف فقد سئلت عنه أئمة الدين، أهل الفتوى واليقين، وقد أجابوا عنه بما هو مقرر في محله، فلا نطيل بذكره، لأن أغلب الناس في عصرنا هذا لا تعوزهم قلة العلم، وإنما أعوزتهم قلة العمل به، فالمنكر مثلا على الصوفية حالا من أحوالهم، أو أحوالهم جميعا فهو يعلم أن أقل صوفي يوجد على وجه البسيطة، هو أطهر منه قلبا وأنظف منه جوارحا وأشد منه استمساكا بتعاليم الدين، ولكن

النفس الأمارة بالسوء لا تسمح لصاحبها أن يعترف لذلك الصوفي المسالم بأي فضل من فضائل الدين، حسدا من عند نفسه، وتضليلا لأهل دينه؛ وهؤلاء يا أخي إن الأولى أن نعرض عنهم، وأن نعذرهم فيما هم فيه حتى يفتح الله بيننا وبينهم بالحق، وهو خير الفاتحين.



الأوراق المدلسة

في ذات يوم من الأيام ساعدتني الأقدار الإلهية باغتنام ساعة، أو باغتنام أيام من أيام الله، فكنت فيها مع أقوام لا يفترون عن ذكر الله أثناء الليل وأطراف النهار، كأنهم الملأ الأعلى، لما جبلوا عليه من حب العبادة، والتقرب إلى الله بمزيد من الذكر، وجميل الشكر.

وقد كنت كلما أسعدني الحظ بمجالستهم إلا اغتنمتها بكل الإعتناء والإعتبار، وقد انتفعت ـ والمنة لله ـ بحديثهم الشريف، وتذكيرهم، المنيف، ورأيهم الحصيف، ومرماهم اللطيف، وأجل أنه للطيف...

قال بعضهم: إن الأوراق المدلسة التي قد يغتر بها الكثير من الناس فإنها لا تبعد أن تفتضح لكافة الناس في الأمد القريب، ولكن لا يكون افتضاحها إلا على يد رجل من أهل الفن، أي ممن لهم إلمام، ومسس بالدوائر الحكومية، لأن الأوراق المزيفة، وان هي تشابه الصحيحة في جميع نعوتها،

فهي لا تحمل وجه المملكة المعبر عنها بطابع الحكمة، وهذا الوجه له ناحية خاصة من الورق الرسمي المقبول، لكن لا يدركه كما قلنا، إلا من له دراية بنظام الحكومة، وأسرارها الخفية، أما الورق الزائف فهو لا يحمل هذا الوجه على وجهه، ولهذا كان مردودا، لا قبول عليه، وقد يعاقب صاحبه العقاب الشديد، لأنه أراد أن يشارك الحق في ملكه بغير حق، وعليه فجزاؤه الطرد والابعاد وسوء المنقلب.

أما الأوراق الصحيحة، فهي التي يوجد على وجهها وجه الحكومة، وبذلك الوجه تكون جائزة فائزة حيثما حلت، وأينما ارتحلت، سواء عليها أكانت جديدة، أم كانت بالية، وسواء عليها أكانت في ثوب قشيب، أم كانت في ثياب رثة فهي غنية في جميع أحوالها بما تحمله من وجه الحكومة على وجهها، بل ولو كانت مرقعة لقدمها، وضعف حالها؟...

هذا مثل من الأمثلة الصحيحة التي نضربها للناس في صحبة المنتسبين إلى الله، الداعين إليه

بإذنه وسراجا منيرا، أما المدعون بغير صدق، ما ليس لهم بحق، فهؤلاء مثلهم كمثل الأوراق الزائفة التي قد يرى عليها جمال وظرافة، ربما لم تكن على الأوراق الصحيحة، ولكن إذا تأملت وجوههم وقلوبهم وجدتها خاوية على عروشها، من الاخلاص إلى الله، (والله لا يهدي كيد الخائنين)، لأنه سرعان ما تتضح لك مقاصد المغرضين، وان أوتوا من الحيل والمغالطة ما لم يؤته أحد من العاليمن. وهكذا تجد المؤمن وان كان غرا، إلا أنه ينظر بنور الله، لقوله عليه الصلاة والسلام: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله).

لما انتهى حضرة المذكر من تذكيره، علمت علم اليقين أن أعمال المدلسين وأقوالهم، إنما هي (كسراب بقيعة يحسبه الضمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئا، ووجد الله عنده فوفاه حسابه)، أي يعرفه بحقيقة أمرهم معرفة لم يبق معها شك ولا ريب، بأن أعمالهم وأقوالهم كهباء في هواء، وهي أشبه شيء بالباطل، تراه يجول ويصول، ولكن إذا جاء الحق، زهق الباطل (إن الباطل كان زهوقا).

وإني أشكر بكل قلب ولسان، بل وبكل جارحة فضل ذلك المرشد، الذي أماط اللثام عن وجه تلك الجوهرة العزيزة، التي هي من أنفس الجواهر في النصيحة لله ولرسوله ولعامة المسلمين وخاصتهم، فحياك الله وبياك، وأطال بقاءك عزا للمؤمنين وذخرا للمتقين.



علامات الشيخ السالك

قال تعالى في محكم كتابه: (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) فأقول: إن هذه الآية الكريمة قد جاءت مبشرة بأن التذكير نافع ولكن لأهل الايمان المتقين؛ وهم (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) ومن كانت هاته صفته كانت بذور التذكير نافعة له؛ أما من لم يكن كذلك، فبعيد منه أن تقع منه الموعظة موقعها الأليق والأنسب لها، وسواء عليه أكان من أهل العلم أم من أهل الحسب والانساب. قال سيدي «أبومدين»: << كل من رأيته يدعي مع الله حالا لا يكون على ظاهره شاهد منه فاحذره >>.

قال مولانا الأستاذ في كتابه: «المواد الغيثية» تعليقا على هذه الحكمة << أي إذا رأيت إنسانا يدعي مع الله حالا لا يكون له شاهد على ظاهره منه فاحذره>>. لئلا يصيبك من شره، لأن المجالسة مجانسة، وكيف يدعي أن له حالا مع الله وهو لم يظهر على ظاهره أثره، وقد قيل: إن الظاهر عنوان الباطن، وما فيك يظهر عليك، ولا ترشح الأواني إلا

بما سكن، ولهذا قيل: لا تأخذ من الفقير المقال، وإنما خذ منه الحال، وإن من الناس من يتزين ويتشبه بأقوال القوم وإصطلاحاتهم، حتى إذا سبرت سيرته ومقاله لم تجد له شيئا من ذلك؛ وهؤلاء هم الذين يتعين الحذر منهم، لأن العارفين بالله لهم سيمة في الظاهر، تنبيء عما لهم في الباطن، قال تعالى في كتابه **(ويتلوه شاهد منه)** فالعارف المتمكن تشهد عليه جوارحه بصدقه في عبوديته، فهي تنطق وتصدقه بلسان الحال، كما تنطق يوم القيامة، وتشهد عليه بلسان المقال، لقوله تعالى: **(يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون)**.

العارف كله عمل بلا مقال، هكذا ينبغي له أن يكون، إلا إذا كان منتصبا للتذكير، أو تقول قلبا بلا لسان، وإن كان ولابد، فقلب ولسان، لما قيل: دليل الشهود، الوقوف مع الحدود.

وحاصل الأمر من لم يكن له شاهد على ظاهره، موافق لدعوته، فلا فائدة في صحبته، وهذا الذي يجب الحذر منه، فاحذره رعاك الله.

بين ضفاف الوادي

على ضفة الوادي اليمنى من وادي «شلف» بقرب مدينة «غليزان» وقعت قصة تاريخية حقها أن تسطر ولا تبتر، وحقها أن تذكر ولا تنكر، لما احتوت عليه من الذلاقة الأدبية، والمغزى الرقيق البعيد المدى عند من يقدر المواعظ حق قدرها، فينتفع بها وتدوم له ذخرا في حياته كلها، تلك هي الموعظة النافعة، وذلك هو القلب السليم الحي المستعد بصفائه لقبول النصائح والإرشادات.

قيل: إن رجلا من أهل التوفيق ممن يقطنون ببادية مدينة «غليزان» قد وفقه اللّه في بعض أيامه فذهب إلى مدينة «مصر» في طلب العلم، وبعد سنوات عامرة سعيدة أكرمه اللّه بحسن البخت، وحصل على مطلوبه من البضاعة العلمية الشافية الكافية، وبعد الفراغ منها قفل إلى بلاده مزودا بكمية وافرة من الكتب لا تقل عن قنطارين في ميزانها، وما زال سائرا من «القاهرة» من مرحلة إلى أخرى، إلى أن وصل إلى الضفة اليمنى من وادي «شلف»

وعندما أراد العبور على الوادي وجده صعبا لتقويته بالسيول الجارفة المتزايدة في فصل الشتاء.

قرب من صاحب القارب في جماعة من الناس وكلهم يريدون العبور إلى الضفة الأخرى من الوادي، فابتدره صاحب القارب ـ لما توسم فيه من سيمة العلم والصلاح ـ تعال يا شيخ! فقال الشيخ: أنا لا أعبر إلا بمعية كتبي. فقال له الملاح: إنه لا يمكنك بحال أن تحمل كتبك معك والحال كما ترى من فتنة الوادي الذي تزايدت قوته على العادة بكثير، وعليه: فإن شئت حملت لك كتبك أولا، ثم أحملك ثانيا، وإن شئت حملتك أولا، ثم أحمل كتبك ثانيا، فأبى الفقيه ذلك كله ورضي بالقعود مع كتبه. وإن مع ما هو فيه من الوحشة والإنقطاع عن أهله الأعزاء.

وبينما الفقيه في أتم حيرة من أمره قال له الملاح: ما هذه الكتب التي عزت عليك فراقها؟ قال: هي العلم. فقال الملاح: وهل ترى أن هذا العلم الذي لم يقطع معك واديا من أودية الدنيا، فهل تراه قاطعا معك إلى الآخرة؟ وهل إذا دعاك داعي الله تقول له: لا أذهب معك إلا بصحبة كتبي.....

فتأمل الفقيه قليلا وقال: لا، إن دعوة داعي الله مطاعة، ولا حيلة لي أو لغيري في صرفها عني. فقال الملاح: إن الأولى لك أيها الشيخ أن تحتفظ على علم يكون في نفسك دائما، وهو معك حيث حللت أو ارتحلت، أما العلم المسطر في الكتب أو الصحائف لا في نفسك، فلا أرى فيه من الفوائد والكرامات ما ينفعك كلما احتجت إليه، سواء في عالم الدنيا أو في عالم الآخرة، لأن علم الكتب مقصور على هذه الدار، وقد لا ينفعك إذا احتجت إليه؛ ولربما قد يكون حجة على صاحبه بدل أن يكون حجة له. وأنه ما انتفع به بعض النفع إلا من اعترف بعجزه عن الإنتفاع به. أما من جمد على عناده وتعصب في هواه، فقد أضله الله على علم، وإلى تلك الحالة السيئة التعيسة أشار الحديث الشريف بقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : **(إن من العلم لجهلا)**. فقال الفقيه: صدق رسول الله، فهل لك أن تحملني إلى منهلك الذي نهلت منه وأنا لك من الشاكرين؟



في رابعة النهار



كان بعض السواح منَ أهل الله المُتَّقِينَ يجول في بعض الأنحاء على القرى والخيام، وبينما هو يتنقل من قرية إلى أخرى، ثم من خيمة إلى خيمة، إذ أحس من نفسه الوسخ والقذارة ولدغات القمل، فانتبذ إلى ناحية وتجرد عن ثيابه، ولم يبق منه إلا ما يستر به عورته، وشرع في فليه جزءا جزءا.

لبث حضرة السائح في عمله ذلك برهة من الزمان، وبينما هو كذلك إذ عثر على قملة تكاد تكون هي أم القمل التي انبعثت منها تلك الجنود الجرارة التي كدرت على السائح سياحته وأقلقت راحته، حتى اضطر إلى انقطاعه وإلى إشهار حرب قاسية على تلك الجنود الفتاكة التي أشهرت عليه حربا عوانا لا هوادة فيها، فكان جزاؤهم عنده السحق والمحق.

وبينما هو في جهاده العنيف ومقاتلته الشديدة لتلك الجنود، إذ قالت له قملة: على رسلك يا سائح أو صوفي! ألا تتقي الله في خلقه وتعمل فيها بحكمه! قال: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم

الظالمون) فقالت أم القمل: ما كان لك بحق أن تقتل أولادي بغير ذنب وأنت ترشد الناس وتهديهم سواء السبيل. فقال الصوفي: من أنت يرحمك الله؟ فقالت: أنا أم الأولاد، ولي الحق في مطالبتك بدمائهم، فهل لك أن تتقي الله وتنصفني من أمري! حتى لا تبقى عليك تبعة من قبل الله.

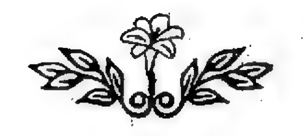
ولما سمع الصوفي خطابها المحكم، سكن روعه، وانتبه من غفلته، وقال: يا سبحان الله! أقملة ترشدني، وأنا لا أنصفها من نفسي، فما أنا إذا إلا جبار في الأرض، وإلا فماذا علي إذا تنزلت إلى هذه القملة، وسمعت حديثها، وماذا تريده من نصيحتي وإرشادي؟ وقد تنزل قبلي نبي الله «سليمان بن داوود» عليهما السلام، إلى استماع قول نملة، وشكرها على أدبها معه، وحسن ظنها به، حيث قالت (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون).

ثم التفت إلى القملة وقال: ها أنا ذا أيتها القملة، في استماعك واعتبار حديثك. فقالت القملة: ما جرؤت على خطابك إلا لعلمي أنك من القوم

الصوفية الذين يلتقطون الحكمة حيث يجدونها، ويشاهدون سرا خفيا في كل شيء من الأشياء جميلة كانت أو قبيحة، ولا خسيس عندهم إلا من حيث التعبير. فقال: نعم، كل شيء صحيح، وأنا واحد من أولئك المتقين غير أني لا زلت أرجو الله أن يوفقني دائما إلى صالح القول والعمل.

فقالت القملة: إن القوم الذين ذكرتهم لك لا يحملون حملتك الشعواء على أي خلق من مخلوقات الله، فلماذا أنت خالفت طريقتهم فعمدت إلى قتل أبنائي عن آخرهم، وأنت تعلم أن كل واحد منهم قد أكرمه الله بصفات المعاني والمعنوية مثل ما أكرمك أنت ومن على شاكلتك من أبناء آدم عليه السلام. فقال الصوفي: لأنهم أكلوا لحمي وشربوا دمي. فقالت القملة: كل ذلك حلال لهم من الله ورسوله، لأنهم خلقوا منك وفيك يعيشون، ألم تر أنت أنك خلقت من الأرض وفيها تعيش، وأنت ترى أيضا أنه لا حرج عليك إذا شربت من مائها وأكلت من رزقها، فكان الأولى لك أن تعتبرهم بهذا الإعتبار ولا تؤاخذهم على ما فعلوا. وهذا إذا

اقتصرنا على هذا الإعتبار المعقول عند كل منصف، أما إذا خاطبناك بلسان قومك الصوفية ـ رضي الله عنهم ـ فذلك شيء آخر عند من يلتقط الحكمة حيث يجدها.



بـريـاض الـوداد دائـمـا



لا زالت الدهور والأعوام، والشهور والأيام تتشرف من آونة إلى أخرى، بذكرى المولد النبوي الشريف، كما أنها لا زالت أيضا الأمة المحمدية تتشرف بالإحتفال به جيلا بعد جيل، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والله خير الوارثين.

لا شك عندنا أن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها قد احتفلت بمولد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وما من أحد منهم إلا وهو يشعر بشرف أثيل، وعمل جليل، حيث وفقه الله إلى الفرح بذلك المولد الكريم، والموسم العظيم، حيث كانت نسبته إلى «الرسول المصطفى» الذي جاء آية للعالمين، ناطقة بالتوحيد، ومكارم الأخلاق، ذلك الرسول الذي لازالت مزاياه تنشر فضائلها، وتبث عواملها، إلى هذا العصر الحاضر، وقد اعترف بمزيته لا المسلمون فقط، بل وكل من في قلبه مثقال ذرة من الإنصاف من أبناء الأمم الأجنبية عن الإسلام، وفضيلة كتلك الفضيلة، لشاهد عدل على كمال

نبوءة «محمد بن عبد الله» ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

جاء هذا النبي الكريم، فآمنت به أقوام، وكفرت به آخرون، وتلك هي حكمة الله في خلقه، **﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾** ولكن ما مات حتى ترك في أتباعه أخلاقا شريفة، وتربية كاملة أعربت بطبيعتها وجميل أثرها عن فوز تلك الثلة الصالحة التي أكرمها الله بالإيمان به وبرسوله العظيم.

ومما يذكر بكل تنويه من تلك التربية الجميلة أنه قد غرس محبة جميع الأنبياء والرسل في قلوب المؤمنين، بحيث ما من مؤمن إلا وتجده مملوء القلب بمحبة الرسول كما هو مملوءا بمحبة بقية الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ولا فرق عنده في الإيمان بجميعهم أنهم رسل الله وأمناؤه على دينه ووحيه، وهذه مزية للنبي من أعظم المزايا، لأنها شبه شيء برابطة عالمية كبرى مع جميع الأمم البشرية على اختلاف أديانها وأجناسها إلا إذا كانت لغير الله.

ولمناسبة هذا المولد الشريف احتفلت إخواننا العلاويون برياض الوداد كعادتهم، وأحيوا ليلة السابع منه، فكانت حفلة تنهض بالأرواح والقلوب إلى أعلى

عليين، إلى حيث رياض الأنس بالله، ولمثل ذلك فليعمل العاملون، فرضي الله عن كل من شارك في تلك الحفلة، سواء بطعامه أو بقدومه، كما أسأل الله أن يوفي كل واحد قسطه من الأجر الجزيل والشكر الجميل، وأن يجعل هذا المولد مباركا سعيدا على كافة المؤمنين والمسلمين، ومن يمت إليهم بحبل المودة والوداد والإعتبار.



فهرس الكتاب

